فَلِبُس
(الحلّاق)

فْلِبْسْ الحلّاق (رواية)

توفيق جاد (كاتب من الأردن)

الطبعة العربية الأولى 2022.

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، مجمع المفلح التجاري (87)، ط1. هاتف: 797162720.65620722(962+)
alaan.publish@gmail.com
alaanpublishers.com

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN:978-9957-67-777-0

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2021 /1 /169)

813.03

جاد، توفيق أحمد

فلبس الحلاق/ توفيق أحمد جاد. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2021

(184) ص

ر. إ: 169/ 1/ 2021

الواصفات: الروايات العربية/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة

وزارة الثقافة
طُبع بدعم من وزارة الثقافة
2022

توفيق جاد

فُلِبُس (الحلّاق)

رواية

إلى.. روح الحلّاق أبو نبيل (فْلِبْسْ)..

إلى.. نورشمس ومن أنجبت..

إلى.. كل فلسطيني وأردني وعربي..

إلى.. كل شرفاء وكادحي العالم العربي..

إلى.. كلّ منْ يقرأ هذه الرواية.

فـــــلِبْس

أخيراً.. وبعد أن أنهيتُ العقد السادس من عمري.. قررت أن أخرج عن صمتي.. وأن أبوح بما استعمر دواخلي.. سأكتب بنفسي عن نفسي.. سأكشف ما أسررته في نفسي لعقود توالت عليّ.. سؤال يخالجني وأحياناً يشغلني.. هل كان سؤالي المحيّر هذا يدلّ على سذاجتي؟ هل كان يدلّ على قلّة جرأتي؟ هل بلغ من الصعوبة بمكان ليحتاج سؤالي؟ هل كنت أستطيع الإجابة عنه لو أنني استخدمت عقلي ولو قليلاً؟ لماذا لا أسأل وقد قالوا: «السؤال ثلثين المعرفة» وقالوا: «اللي بسأل ما بتوه»! لِمَ لا أريح نفسي وأحاول الوصول إلى الإجابة؟! لست أدري ما الذي منعني منذ أن أنهيتُ السنة الخامسة من عمري أنْ أحتفظ بين أضلعي بسؤال لا يستحقّ منّي حتّى التّفكير به.

من يحلق للحلّاق؟ هل يقوم حلّاق آخر بتزيينه والحلاقة له؟ أم أنّه يقوم بالحلاقة لنفسه بنفسه؟ أم يستعين بأحدهم وبإرشاداته وتعليماته بالحلاقة له؟ وربّما يستعين بزوجته أو أولاده.. من يحلق للحلّاق؟ سؤال ساورني في طفولتي الغضّة.. رافقني بوساوسه حتّى المشيب.. أظنّه شاخ وهرم.. لا بلْ تعفّن بين دهاليز عقلي

وحجيرات قلبي التي أقفلتها بمفاتيح الصّمت وجنازير الكتمان.. يتنقّل مع مرور الأيّام ولا يغادرني.. آنَ الأوان أن أتحرّر من قيده الذي يأسرني.. سأقوم بتحطيم قيوده.. سأقوم بوأدها في بحور النسيان العميقة.. الجواب البسيط تأخّر كثيراً.. باتت الحقيقة ملحّة والجواب أمنية أرنو للوصول إليها وسبر غورها.

أبو هاشم الصديق الحلّاق، حين سألته عمّن يحلق للحلّاق، نظر إليّ باستغراب وربّما ظنّ بأنّني أمازحه.. لقد أعادني بإجابته لأكثر من خمسين عاماً.. ضحك ملء شدقيه واعداً أن يجيبني في المرة القادمة.. أظنّه شكّ بأنّني أمازحه، فتركني أتخبّط في حيْرتي.

اقترب موعد دخولي المدرسة.. جميع طلّاب المرحلة الابتدائيّة كان عليهم أن يحلقوا (على الصفر أو الموس).. أو كما كنّا نقول «عالقرعة».. قامت والدتي (رحمها الله) بإخراج ماكينة الحلاقة اليدويّة من الخزانة.. حرّرتها من قيود الشرايط التي كانت تأسرها بين طيّاتها.. وضعتها بكأس معدني ثمّ سكبت مادة الكاز حتّى منتصفه.. وضعت الماكينة بداخلها كيْ تتعقّم وتسلك مسنّناتها.. وضعتها على الرف وقالت:

«بس يروِّح أبوكم من الشغل بِحلقلكم عشان المدارس، باقيلها يومين وبتفتح..».

انزعجتُ كثيراً ممّا قالته والدتي (رحمها الله).. رغم سروري العظيم بأنّني سأدخل المدرسة، إلّا أنّني أطمع بأن أرتقي درجة وأذهب إلى الحلاق.. ارتسمت كشرة غاضبة على وجهي وصرخت بأعلى صوتي:

«أنا ما بحلق بالدّار.. أنا كبرت وبدّي أروح عند الحلّاق.. كل أولاد صف أول رح يحلقوا بالصّالون.. ليش أنا أحلق بالدار.. ما بدّي.. بس يروّح أبوي رح أحكيله وأخلّيه يوديني عند **فِلبْسْ**..».

بدأت بالبكاء.. علا صوت صُراخي أكثر.. مفاوضاتي وأسلوب ضغطي لم يؤتيا ثمارهما.. اضطررت إلى السكوت حتى اقترب موعد عودة والدي من عمله.. بدأت أرقبه حتى وصل.. جلست في زاوية الغرفة.. بدأت أبكي كي يسمعني.. حين انتبه لي وسألني عن سبب بكائي، أخبرته بأنّني أريد أنْ أحلق عند **فِلبْسْ**.. لَمْ أعرف حينها لِمَ كان الناس يسمّونه **فِلبْسْ**.. نظر لي أبي (رحمه الله) والتعب يشعّ من عينيه اللّتين احمرّتا وقال لي:

«ماشي يابا بكرة خُذْ من أمّك مصاري، وروح احلق عند أبو نبيل أو أبو العبد..».

فِلبْسْ (أبو نبيل) كان الأقرب لبيتنا.. لم يكن صالونه في حارتنا.. أبو العبد الرجل الكبير في العمر كان صالونه الأبعد.. غالباً أكثر

زبائنه كانوا من كبار السّن.. لا مفارقة بينهما في حسن الخُلُق.. كلاهما يتمتّعان بسمعة حسنة.

صحوت من نومي في وقت مبكر.. يبدو أنّ عقلي الباطن لمْ ينمْ بتلك الليلة. فرحتان توافقتا على إسعادي، الحلاقة بالصّالون أولاً ودخول المدرسة ثانيًا، فأنّى لي أنْ أتأخر في صحوي؟

هرعتُ إلى والدتي أطلب منها النقود.. وقفت أمامها كالطاووس أنفش ريشي تفاخراً.. أكاد أن أنفجر بالضحك سروراً وسعادة.. أمدُّ يدي إليها بثقة واعتزاز بنفسي.. نقدتني ما أحتاجه وأمرتني بأن لا أذهب إلى الصّالون في مثل هذا الوقت، ربّما سيفتح بعد ساعة أو أكثر.. الفرحة أنستني الوقت.. لا بلْ ألغته، فلم يعدْ للزمن أيّ معيار عندي.. بدأت أتسحّب مقتربًا من باب الدار شيئاً فشيئًا.. عينٌ ترقب الباب والأخرى ترقب حركة والدتي.. في غفلة منها أسرعتُ بالخروج من المنزل.

إبراهيم ومحمد وإسماعيل أقراني الذين وجدتهم يجلسون على إحدى الصخور في الحارة.. اقتربت منهم وأنا أشدُّ على يدي التي تحتضن التّعريفة (وحدة نقديّة تساوي خمسة فلسات أو نصف قرش).. وقفت أمامهم متباهيًا بما أحمل ولا يعرفون ما هو.. فركتُ التّعريفة بيدي كيْ يلحظوها.. أسقطتُ يدي في جيب بنطالي العميقة

حتّى غابت يدي بطولها في غياهب الجيب.. أيقنت بأنّ التّعريفة وصلت إلى مأمنها بسلام.. لن أستطيع إبقاء يدي داخل جيبي.. لقد انحنيتُ حتى استطعت أن أوصل التّعريفة إلى مستقرّها.. بدأت يدي تتسحّب خارجة وكأنها تأبى الفراق.. عشقٌ غامرٌ ما بين يدي وما أملك.. رغم أنّني حبستها في جبّ سحيق إلّا أنني لا آمن عليها.. سارع إبراهيم بسؤالي عن التّعريفة.. من أين أتيت بها؟ أين سأنفقها؟ فيمَ سأنفقها؟ هل هو حساب الآخرة عن المال من أين جلبناه وفيم أنفقناه؟ لمْ أعره اهتماماً وسرحت في نظري إلى الأفق البعيد وكأنني لا أسمعه.. ابتسامة منتصر باعدت ما بين شفتيّ.. في لحظة بدأت أسرح بخيالي غبطة وخيلاء.. نبّهني إسماعيل بإعادة ما قاله إبراهيم.. هنا، كان لا بدّ لي من الإجابة.. تمعّر وجهي.. اختفت ابتسامتي.. وقلتُ له بصوت كلّه ثقة واعتزاز:

لقد أعطتني أمّي تعريفة وبموافقة والدي من أجل أنْ أذهب للحلاقة عند **فِلبْسْ**..

إسماعيل: «طيب ليش ما حلقت بالدار؟».

أنا: «عشان أنا صف أول.. لازم أحلق بالصّالون..».

إسماعيل: «وشو يعني صف أول.. المهم تِحلق»..

أنا: «لأ يا حبيبي.. لازم تكون حلقة مزبّطة»..

محمد: «ما عندكم ماكينة»..

أنا: «عنّا.. بس لازم أروح أحلق أوّل حلقة عند **فلِبْسْ**».

بدؤوا ينسحبون الواحد تلو الآخر.. كلّ اتّجه نحو بيته.. أظنّ بأنني قمتُ بإشعال نار الفتنة في ما بينهم.. قنبلة قمت بتفجيرها فتطايروا تباعاً نحو آبائهم وأمّهاتهم.. وأنا قمت بالإسراع والابتعاد عن مكان التّفجير.. راكضاً نحو الصّالون ويدي تضغط من خارج البنطال على التعريفة.. تحرسها منْ أنْ تقفز من مستقرّها فتسقط ولا ألقي لها بالاً.. عندها لن أجد بديلاً من العودة والحلاقة بالمنزل.

مخيّم نورشمس يمتاز بطبيعته الجبليّة.. بيتنا يقع في المنطقة الشرقيّة المرتفعة.. الصّالون يقع في منتصف المخيّم محاذياً للوادي الذي يقسمه إلى قسم شرقيّ وآخر غربيّ.. في الجهة الشرقيّة للوادي يربض صالون **فلِبْسْ**.. يرتفع بعلياء وكبرياء حتّى عن الطريق الموازي للوادي من جهة الشرق.. أهرول بلا تركيز إلا من فرحتي بما أختزن في جيب سروالي.. لا أقع ولا أتعثّر رغم وعورة الطريق التي تتلوى كأفعى بين الصخور.. ربّما لأنّني أحفظها من كثرة صعودي إلى منزلنا ونزولي لمساعدة أبي في عمله بالملحمة.. وصلت إلى الصّالون مندفعاً لاهثاً.. توقّفت فجأة وكأنّني أضغط على كوابح توقفني عن الحركة.. المفاجَأة كانت بأنّ الصّالون ما زال

مغلقـًا.. أحسست بأنّ حلمي يتبدّد.. لـمْ أنتبه لبكوري بالحضور.. اعتقدت بأنّه كان على **فِلبْس** أن يوجد في صالونه بهذا الوقت لأنّني سأقوم بالحلاقة عنده.. في المنطقة الغربيّة من الوادي ومقابل الصّالون مبنى البطاقة.. هذا المبنى الذي كان عبارة عن عدّة أعمدة إسمنتيّة مسقوفة بسقف إسمنتيّ سميك وأرضيّة من الإسمنت المسلّح.. تقوم وكالة غوث اللّاجئين الفلسطينيين بتوزيع المساعدات للناس من هناك مرّة كلّ شهر.. نظرت، وإذا بولدين يلعبان بداخلها.. كانا زياد وسهيل من الحارة الجنوبيّة.. أنا أعرفهما وقلّما ألعب معهما.. مخيّمنا صغير بعدد سكانه.. كبير بما يحوي من أناس ودودين وخلوقين.. قلّة عدد السكان جعلت جميع الناس يعرفون بعضهم بعضا.. أشارا لي بالذّهاب والانضمام لهما.. اقتربتُ ولم أشاركهما لعبهما بالبنانير (الدّواحل، المازيّات).. جلستُ على حافّة جدار البطاقة الجانبيّ وعيناي ترقبان الصّالون.. أمّا يدي فما زالت تحرس التعريفة.. عرضا عليّ مشاركتهما في لعبهما.. هززتُ رأسي بالنّفي دون أن أنبُس ببنت شفة.. رغبتي باللّعب عارمة.. ولكنّ خوفي على التعريفة أكبر.. نفسي راودتني مراراً أنْ ألعب.. عين على الأولاد والأخرى على الصّالون ترقبه.. مرّات عدّة كِدْت أنْ أتدخّل باللّعب.. عندما لا يعجبني تصرّف أحدهما تتحرّك غريزتي

لتصحيح ما قام به.. آثرت السكوت، فلو تدخّلت لأشعلتُ مشاجرة بيني وبينهم.

كمحبٍّ عطشٍ ينتظر لقاء محبّه ليروي ظمأه برؤياه.. أنتظر على أحرّ من الجمر أن يُبرقَ نور **فلِبْسْ** فأكون أوّل المحظوظين بالتزيّن في صالونه الذي لا أعرفه إلا من الخارج.. ساعتي الرمليّة توقّفت عن ذرٍّ ما بداخلها من الرّمل إعلانًا لانتهاء الوقت والبدء بساعة الصفر.. قمتُ أمشي في البطاقة جيئة وذهابًا أعدّ الخطى لقتل الوقت.. مشاجرة لفظيّة وقعت بين ولدين يلعبان على الشارع المار بمحاذاة البطاقة.. تلك الجهة المعاكسة للصالون.. أخذت أنظر إليهما ونسيت ما أنتظر.. لست أدري كم من الوقت مضى وأنا أتابع الأولاد بنظراتي التي أنستني **فلِبْسْ** وصالونه.. هدأت المشاجرة قليلاً وخبت نارها.. التفتّ إلى الصّالون فوجدت أنّ بابه الخشبيّ كان مفتوحًا.. يقف **فلِبْسْ** بطلّته البهيّة.. شعره الأسود يعكس خيوطًا من أشعّة الشمس.. أظنّه كان يدهنه بزيت الزيتون ليعطي لمعة تجعله يمتاز عن باقي الناس.. فكيف لا يكون المُزيّن هو أزينهم؟ وهل من الممكن أن يضنّ بجمال على نفسه؟ بين يديه بشكيرٌ سكنيّ اللّون ينفضه ممّا علق به من شعر.. ينظر باتّجاه البطاقة.. حسبت أنّه بنظراته تلك يناديني.. انطلقتُ مسرعًا أبتغي الانصياع له.. لمْ أنسَ

أنْ أضع يدي على جيبي.. هي الحارس المتيقّظ للتعريفة.. اقتربتُ من الصّالون فلمْ أجده يقف بالباب.. ثلاث درجات كان عليّ أن أصعدها لأقف بباب الصّالون.. هناك، وقفت واستدرت إلى الخلف لأرقب الأولاد.. هل يتابعونني؟ هل يحسدونني على حلاقتي بالصّالون.. انتظرت لدقائق قليلة علّي أحظى بنظرة من أحدهم.. أظنّني لست على قائمة اهتماماتهم.. أخرجتُ التعريفة من جيبي.. اندفعتُ داخلاً وأنا أشهرها بين أصابعي الصغيرة.. أرفعها للأعلى قائلاً بصوت عالٍ: «بدّي أحلق».. نظر إليّ بطرف عين وقال لي:

«إقعد هناك – وأشار بيده إلى كرسيّ صغير- مش شايف الزّلمة إللّي قاعد على كرسي الحلاقة؟ احترم الناس.. ».

جلست وأنا أشدّ على التعريفة وأخنقها في باطن يدي.. بدأت أجول في نظري بالمكان وكأنّني أستكشفه.. هي المرّة الأولى التي أحظى فيها بالدّخول إلى صالون حلاقة.. لا بدّ لي من التفاخر بين أقراني.. حدثٌ لم أتوقعه ولم أحلم به في ذاك العمر.. لأوّل مرّة أرى مرآة كبيرة الحجم.. بجانبها راديو متوسط الحجم وماكينة حلاقة كالتي عندنا.. عرفتها لأنها هي الأخرى موضوعة بعلبة أظنّها تُغرقها بمادة الكاز.. رأيت صحنًا صغيراً به قطعة صابون وبجانبها فرشاة كالتي يستخدمها أبي في حلاقة ذقنه.. بجانبها عدّة أمشاط

ومقصّات.. يتدلّى من الطاولة قشاط عريض كان الحلّاق يستعمله لسنّ الموس وليحدّه.. ربّما بشكيران وملايتان موضوعتان على طرف الرّف.. علبة صغيرة من البودرة بها قطعة ربّما تكون من الصوف أو خيوط الحرير الناعمة وبجوارها قنينة من الكالونيا صفراء اللّون.. أعتقد بأنّ ذاك الرّف الصّغير يحمل جميع معدّاته ولوازمه.. أشحت بنظري إلى الحائط.. رأيت علاقة ملابس صغيرة تعلو كرسيين للكبار.. أمّا تحت الرّف فكانت سلّة زبالة بلاستيكيّة وبها مجرود زبالة.. مكنسة تنتصب بجانب الرّف.. تقدّم أبو نبيل.. اختطفها بسرعة، وبدأ يكنس ما بات من الشّعر على الأرض.. بعد أنْ غيّر من وجه الأرض، بدأ يمسح بشريطة صغيرة بعض معدّاته والرّف.. أمسك بماكينة الحلاقة وبدأ يسيّرها وكأنّه يقوم بفحصها والتأكّد من سلامتها.. تناول ملاية وفردها على صدر الرّجل، ثمّ قام بربطها من طرفيها حول رقبته إيذانًا ببدء العمل.

ضقتُ ذرعًا وأنا أتلفّت مشدوهًا هنا وهناك.. بدأ **فلِبْسْ** يهمس في أذن الزّبون.. قمت عن الكرسيّ وبدأت أتسحّب للخارج شيئًا فشيئًا.. قمتُ باستغلال انشغاله مع الرّجل لأخرج من الصّالون.. انتبه لي وسألني عن وجهتي.. أخبرته بعد أنْ دبّ الخوف في قلبي

بـأنّني سـأقف خارجـاً لـبعض الوقـت.. بصـوت حـازم أمـرني بعـدم الابتعاد لأنّ دوري سيكون بعد الرّجل مباشرة.

وقفـت أمـام الصّـالون.. أخرجـت التعريفـة مـن جيبـي.. شـددت عليها في قبضة يدي.. بدأت أقلّب نظراتي في كلّ الاتجاهات علّ أحد الأولاد يراني فيعرف بأنّني سأقوم بالحلاقة في الصّالون.. حظّي كـان سيئـاً جداً.. الأولاد لا يعلمـون بـأمري ولـم يجتمعـوا للّعـب في تلـك المنطقـة.. حتّـى مـن كـانوا يلعبـون بالبطاقـة، ومـن كـانوا يتشـاجرون غادروا المنطقة.. يا لحظّي التعيس! كلّ أحلامي بأنْ يـراني الأولاد أو يسـألونني عمّـا أفعلـه ببـاب الصّـالون بـاءت بفشـل ذريـع.. ولكنّنـي ضـحكت علـى نفسـي وطمأنتهـا بـأنّني سـأقوم بـإعلام جميـع أهـل المخيّم بأنّني حلقتُ بالصّالون.

سـقطت التعريفـة مـن يـدي علـى الأرض.. لـمْ أنحـنِ لالتقاطهـا.. سـارعت بـالجثُوّ علـى ركبتـيّ، وانكببـت عليهـا أضـمّها بكلتـا يـديّ.. عدْت داخلاً إلى الصّالون شاهراً بدل حلاقتي، طالبـاً من أبي نبيل أنْ يستلم أجرته ظنّـاً منّي بأنّني أضـمن حلاقتي بهـذه الطريقـة.. التقطهـا منّي بعصبيّة ظاهرة وقال:

«جنّنتني بهالتعريفة يا زلمة.. هاتها واقعد عالكرسي ولا تتحرّك.. هسّة بمشّيك.. »..

بدأ يفكّ الملاية عن عنق الرجل.. تناول فرشاة عريضة وبدأ ينفض ما بقي من شعر على كتفيه.. وضع له بودرة على رقبته ولحيته.. تناول زجاجة الكولونيا.. سكب القليل منها في يده.. فرك يديه ببعضهما بعضاً وبدأ يدهن على لحية الرجل ورقبته.. قال له نعيماً، فكانت هذه إشارة للرّجل بالنّهوض، فقد انتهى العمل.. بدأ بإزالة ما علق من شعره عن الكرسيّ بنفضه بالملاية وأمرني أن أتقدم.. وضع لوحاً خشبيّاً على يديْ الكرسي.. انتشلني من تحت إبطيْ وأجلسني على الخشبة.. نظرت للمرآة فرأيتني كاملاً.. سررت بمرآي كثيراً.. تلك المرآة التي لم تنكر عليّ شيئا من تفاصيلي.. كلّ ما هو بمقابلها تنقله بصدق ودقّة.. أراني بحسب واقعي.. ألمس كلّ تعابير وجهي.. فقط هي أحاسيسي المخفيّة التي لنْ تبوح بها تلك المرآة الصادقة.. تحفظ أسراري وما يكتنز في صدري خلف لمعانها الصافي.. أسرارُ كلُّ منْ يقابلها تقوم بحفظها في جوف صفائها ونقائها.. تمحوها في لحظة الابتعاد عن مواجهتها.. تقول لك:

انطلق راشداً.. أسرارك التي بُحت بها قد مسحتها من دفتر ذكرياتي.. لا تُحاول البحث عنها بين أضلعي المعوجّة.. أسرارك الآن مُخزّنة في صناديق حلاقك الذي لمْ تكْتمه شيئاً.. سيبوح بما يشاء وسيفرج عمّا يشاء.. هو صاحب القرار بتلك الأسرار.

سألني: «بدّك تحلق عالماكينة ولّا عالشفرة؟».. فسارعت برفض الحلاقة على الشفرة التي لا تُبقي من الشعر ولا تذر.. ربط الملاية حول رقبتي.. وما هي إلا لحظات قصيرة وإذا بي أرى رأسي بلا شعر.. سررت لأن خطوط الشعر التي كنت أراها بعد حلاقتي بالمنزل قد اختفت.. تناول موس الحلاقة وبدأ يسنّه على القشاط المتدلّي من الرّف.. بدأ يحدّد حول رقبتي وجوانب رأسي.. أيضاً وضع لي بودرة وكالونيا.. حلّ الملاية.. نفض ما تبقى من الشعر على كتفيّ وقال لي:

«يلا عمّي.. روّح عالدار عشان تتحمّم وتصير حلو.. بس لا تنسى تسلّم على أبوك.. ».

سعادتي بالحلاقة فاقت سعادتي بدخول المدرسة.. تلك الفرصة ربّما لنْ تتكرّر خلال عدّة أعوام.. أصبحت بالصفّ الثالث.. كان أملي أن أعاود الحلاقة بالصّالون في الصفّ الرابع.. لقد بدأت أكبر.. صرت أجادل وأناقش.. تمّ وعدي بأن أذهب للصّالون كباقي إخوتي الذين يكبرونني مع بداية دوامي بالصفّ الرابع.. تلك الفرحة قُتلت أثناء العطلة الصيفيّة.. قامت إسرائيل بشنّ حرب علينا في السادس من حزيران من عام 1967م واحتلّت الضفّة الغربيّة.. انهار الوضع الاقتصاديّ فكان على الناس أن توفّر من مصاريفها ما استطاعت..

كان من بنود التوفير أنّ من يدرس منّا بالمرحلة الابتدائيّة عليه أن يحلق بالدار.. تلك الماكينة ما زالت تعمل منذ سنين عدّة.

أعتقد أنّ ما خلّفه قصف اليهود العشوائي في المناطق الفلسطينيّة، ترك خلفه آثار حلاقة للشجر.. تنوعت أشكالها وأحجامها.. تجد أحيانا بعض الأشجار وقد حُرِقتْ بالكامل.. هذه هي حلاقة الصفر.. أمّا البعض الآخر فتراه وقد حُرِقَ من ميمنة أو ميسرة.. تتعدّد الأشكال والطرق.. تبقى النتيجة واحدة.. هي حلاقة ضارة وليست نافعة.

سعدتُ كثيراً حين أمر والدي أخي الكبير بأن يقوم بالحلاقة لأربعة منّا على الماكينة.. عدلٌ للجميع وتساو غير مسبوق.. لا استثناءات اليوم.. كان ذلك قبل أن تفتح المدارس أبوابها بيومين فقط.. حين بدأ أخي الكبير بالحلاقة لمن يكبرني، انكسرت يد الماكينة مع أوّل ضغطة عليها.. فرحتُ كثيراً لأنّني سأعود للحلاقة عند **فِلِبْسْ**.. عاد والدي من عمله فهرعنا جميعاً نبلغه بما جرى.. هزّ رأسه وقال:

«هاتولي ماكنة الحلاقة تبعتي وهاتولي معها باكيت شفرات».. تلك الماكينة التي كان يُدخل شفرة (ناسيت) كاملة بحدّيها على قاعدة معدنيّة وفي وسطها نتوء مسنّن لتركيب يد حديديّة مسنّنة عليها

فهي اليد التي يُمسك الماكينة منها.. بدأ بمن يكبرني.. أمره أنْ يغسل رأسه بالماء والصابون ثمّ قام بالحلاقة له ونحن نضحك ونردّد النكات عليه.. نواسي أنفسنا بضحكات لا أظنّها تنبع من قلوبنا.. جلدة رأسه لا يخفيها أيّ شيء.. بيضاء لامعة.. بدأت آثار الجروح والفشخات بالظهور.. بعدما انتهى، أمره أن يقوم بدهن رأسه بزيت الزيتون حفاظًا على رأسه ومن أجل أن يحصل على لمعة تسرّه.

أصبحنا نرفض هذه الحلاقة.. طال شعر رؤوسنا.. جاء الأمر من المدرسة لنا بأنْ نحلق أو سيقومون بطردنا إلى أن يتمّ ذلك.. سبب التّشديد هذا كان بسبب تفشّي القمل بين الطلاب طويلي الشعر.. اتفقت مع إخوتي على إعلان التمرّد من أجل أن نذهب للصّالون.. بدأت الظروف الاقتصاديّة بالتحسّن.. كان التجاوب مع مطلبنا سريعًا.. عادت الفرحة للجميع.. سنتخلّص من الشفرة أخيراً وسينتهي عهد الصلعة.

الحلاقة بالصّالون لمْ تكنْ تحتاج لأكثر من دقائق خمس.. لمْ نكن نسمع من **فلِبْس** أكثر من:

تعال، اقعد، ارفع رأسك، اثبت، لا تتحرّك، يلا روح وسلّم على أبوك، نظّف حالك واتحمّم..

أكملت السادس الابتدائي وانتهت معه الحلاقة على الصفر.. طيلة العطلة الصيفيّة أو ما كنّا نسمّيه «عطلة الثلاثة شهور».. تركت شعري يسيح في فضاء رأسي.. بدأت أحرص على أن أحمل في جيبي مشطًا صغيراً يبرز من أعلى جيب القميص.. مرحلة جديدة تختلف في كلّ شيء.. وكما يقولون:

«لكلّ زمان دولة ورجال».. اختلف الزّمان.. أصبحت في عداد الرجال.. حتّى أجرة **فِلِبْسْ** تختلف كثيراً الآن.. لا أحمل النقود وأخنقها في يدي.. لقد كبرت في العمر قليلاً وسأكبر بتصرّفاتي ومعاملاتي.. مع اقتراب موعد العودة إلى المدارس، كان لا بدّ من تحضير نفسي.

قاربت الشمس أن تنتصف كبد السماء بمكانها.. أسرعت بتبديل ملابسي وتسريح شعري الكثّ الطويل.. ذهبتُ إلى صالون أبو نبيل ولمْ أفكّر في الذهاب إلى صالون أبو العبد لأنه كان يُعرَف بحلّاق (الختياريّة)، أي الكبار بالعمر.. أنا أصبحت شاباً وسأقوم بما يقوم به من كانوا يكبرونني بالعمر والصف.. تفاجأت حين دخلت الصالون.. لقد قام **فِلِبْسْ** ببعض التحديث والتجديد في صالونه.. رأيت بعض الصور معلقة على الجدران لرجال قاموا بقصّات مختلفة لشعرهم.. كراسٍ جديدة ومرآة كبيرة معلقة على الحائط

المقابل لتلك المرآة المعلقة فوق الرّف.. دخلتُ وسلمت عليه بيدي كما يفعل الكبار.. رحّب بي وطلب منّي أن أجلس على كرسيّ الحلاقة.. لا ينفكّ عن الترحيب بي.. سألني وهو يرسم ابتسامة على شفتيه:

هو: كيفك عمّي؟ ما اسمك؟

أنا: توفيق..

هو: وكيف أبوك.. كيف صحته؟

أنا: الحمد لله بخير..

هو: ماكينة أو شفرة؟

أنا: لا هذه ولا تلك.. إفرنجي..

هو: ما شاء الله.. يعني أنت إعدادي..

أنا: نعم صحيح.. لقد كبرت وسأحلق كما الكبار..

ربط الملاية حول رقبتي وأنزلها حتّى غطّت ركبتيَّ.. بدأ يداعب شعري بين يديه وهو ما زال يقف خلفي.. سألني كيف أودّ الحلاقة؟ أجبته «وأنا لا أعرف كيف أودّ أن أحلق» بأنني أودّ حلاقة تناسب المرحلة الاعداديّة وتقبل بها المدرسة.. نظرت للمرآة فلم أرَ سواه ونفسي.. انزاح جانبًا وقام بتغيير محطّة الإذاعة فكانت المفاجأة.. يا الله! إنّني أرى رأسي من الخلف.. حواري مع المرآة لم يتوقف إلى

يومي هذا.. فإمّا أن يكون الحوار مع الحلّاق أو مع المرآة.. تلك المرآة التي أرى فيها نسختي الصّامتة.

أكثرت من النظر إلى صديقتي المرآة.. هي التي تصدقني وتخبرني بحقيقتي بلا نفاق أو خداع.. أنظر إلى رأسي من الخلف.. أتفقّد ما أراه لأوّل مرّة.. أرسم تضاريسه حينًا.. أتفقّد آثار الشّقاء في طفولتي.. أنظر إلى بعض البقع التي نتجت عن شجارات مع الأولاد.. لكلّ بقعة أو أثر قصّة وربّما حادثة لا تنسى.. خارطة صغيرة احتوت تاريخًا مليئًا بالحوادث والذكريات رغم قصره.

أخرجني الحلّاق من استكشافي لخارطة رأسي الخلفيّة بسؤاله: هو: «بالنّسبة للشوارب.. شوبتحب نعمل فيهم؟ أشيلهم ولّا شو؟».

نقلني من مؤخّرة رأسي إلى واجهة وجهي.. بدأت أحدّق في شاربيّ اللذين لم يتجاوزا شكل خط معوَج.. سمارٌ خفيف يمتدّ فوق شفتيّ.. مددتُ يدي وبدأت أتحسّس تلك الشعيرات الناعمة.. أحسست بأنني رجل مكتمل.. لا ينقصني أيّ شيء عن الرجال الكبار.. عدتُ أسرح من جديد.. فبينما كنت أسير في الشارع بالأمس التقيت بفتاتين قريبتين من عمري.. نظرت إلى التي ظننتها هي الكبرى.. تكوّر صدرها وبرز.. اعرضّ حوضها.. تشعّ أنوثة..

ابتسمت في وجهي.. مالت على صاحبتها وكأنّها تُسرّ لها.. كانت تريد إسماعي قصداً.. قالت لها:

«أنا بموت بشوارب الشباب الناعمة.. بجنّنوا عالحلوين.. »

قالتها وانطلقت تطوي الطريق وصاحبتها.. ألقت بسهم غوايتها وانسلّت.. أمّا أنا، فقد تركتني أعيش خيالي وأوهامي.. تذكّرْت حصة اللغة العربيّة التي كانت عن الشاعر عمر بن أبي ربيعة.. تحدّث بلسان امرأتين كانتا في الحج.. كانت النساء في الجاهليّة يذهبن إلى الحج كيْ يتغزّل بهن الشعراء.. فقال في قصيدته متحدّثاً بلسانهما حين علمتا بوجوده بالحج:

«وقالت لتربٍ لها تُحدّثها.. لنُفسدنّ الطواف في عمر».. أي، هيّا لنذهب كيْ يتغزّل بنا عمر بن أبي ربيعة ولا نريد طوافاً وحجّاً.. مددتُ يدي إلى شاربيّ.. بدأت أقبض على تلك الشعيرات بإصبعيّ السّبابة والإبهام.. أسحبها بعيداً عن شَفَتي فينفلتُ عقالها.. أعود لتكرارها معتزّاً بنفسي.. لستُ أدري كيف وصلتُ إلى بيتنا.. هرعت إلى المرآة.. التقطتها بسرعة وبدأت أحدّق في شاربيّ.. لا أظنني رأيت غيرهما.. لم أشأ ترك المرآة التي أحدّق فيها وكلمات الصبيّة كالموسيقى تتردّد في أذنيّ.. كان عليّ أنْ أعاود الخروج.. اضطررت لترك المرآة رغم ما يشدّني إليها.. أجمل اللحظات كان عليّ أن

أتركها مرغمـًا.. تمنيت لو لمْ أنشغل لمتابعة مداعبـة تلـك الشـعيرات التـي يُرافقهـا موسـيقى تلـك الصـبية.. أحسـبها تغريـد طيـر جميـل.. آآآآآآآه لو عشتُ تلك اللحظات لفترة أطول ولو قليلاً.

الأحـلام لا تكتمـل في الغالـب.. نبّهني **فلِبْسْ** بتكـرار سـؤاله عـن الشوارب.. مددتُ يدي أغطّيهما خوفـًا عليهما.. قلت له:

أرجوك أن لا تلمس الشـوارب.. سـمعت بـأن الشـوارب التـي لا تُحلـق تبقـى خفيفـة وناعمـة.. فمـا هـو قولـك؟ أجـابني بالإيجـاب.. أعادني للحظات الفرح. . بدأت أسمع صوت مقصّه فوق رأسي.. لم يكـن يقـصّ الشـعر ولكنّهـا حركـة الحـلّاق بملاعبـة المقـص وضـربه بالمشط فوق رأس الزّبون.. أظنّها إنذارا للإيذان بالبدء.

بدأت أركز على حركة المشط والمِقصّ.. أتابع جميع حركاته في كـلّ الاتجاهـات.. أحسـبه فنانـًا في دِقّـة حركاتـه وانتظامهـا.. لقـد بـدأ التغيّر في معالم رأسي.. هناك مواقع تمّ القصّ منها.. وأماكن لم يصل إليها بعد.. بدأ يجمّلني.

عــطسة

الدقائق تمضي وأنا أشعر بمتعة ورجولة.. اليوم مختلف.. نقلة في مسيرة حياتي.. أنهى حلاقة رأسي.. اعتقدتُ بأنّه سيبدأ بإزالة الشعر الزائد على رقبتي بالماكينة اليدوية.. نظرت إلى الرّف أمامي.. بدأت أجول بنظري يمنة ويسرة.. أبحث عن الماكينة وعلبة الكاز.. لمْ أجدْها.. أخرجني **فلِبْس** من حيْرتي حين مدّ يده داخل درج إلى يميني.. أخرج منه ماكينة كهربائيّة.. قام بتشغيلها بكبسة واحدة.. بدأ يستعرضها أمام ناظري.. هو يبلغني بأنّه تطوّر مع وصول الكهرباء للمخيّم.. بدأ يحرّكها بلطف على رقبتي.. تحمل على مقدّمتها بعض الشعر.. يستعرضها أمام عينيّ.. ثمّ يقوم بحركة باتّجاه يبتعد عنّي لإسقاط الشعر، ثمّ همس قرب أذني:

«شايف هاي الماكينة ماركتها – فيليبس – الأصليّة»!

قام بتحديد رقبتي، خلف أذنيّ، وسالفيّ.. قام بتناول موسى الحلاقة.. حدّد سالفيّ.. انتقل إلى الخلف.. وضع الموسى على رقبتي ليحدّد أطراف شعري.. في تلك اللحظة حصل ما لمْ أتوقّعه ولم يكن بالحسبان.

عطسة داهمت أنفي في وقت حرج.. لم أستطع ردّها.. تماسكت بحذر شديد.. وبحركة بطيئة وهدوء، أمسكت بيد الحلّاق.. أبعدتُها بلطف وحذر عنّي.. لقد أحسستُ بتجاوبه معي.. إلّا أنّه كان يشدّ على الموس بين أصابعه حَذَراً من حركتي.. في تلك اللحظة انفجرتْ تلك العطسة الملعونة.. هزّتْ جميع أركاني.. أظنّ لو أنّني لمْ أتصرّف بهدوء وحكمة، لكنت ذبيح الحلّاق **فلِبْسْ**.

الموسى الحادّ الذي كان يحلق شعري بلحظة وبحركة واحدة لا يُبقي ولا يَذَرْ، كان كفيلاً بأن يجزّ رقبتي فيفصلها عن جسدي.. ما أصعبها من لحظات! ما أضيقه من وقت! هي اللحظة الحرجة التي لو خانتني فطنتي واستدركت ذكائي، لَما كنت أخطّ لكم تلك الذكريات في هذه الأوقات.. لحظات فارقة بين الموت والحياة أو الإعاقة.. لُطفُ الله لا يغيب عن عباده.. لقد أكرمني الله بأن منحني ووهبني عمراً جديداً.

نظرتُ إلى المرآة لأرى **فلِبْسْ** وقدْ تصلّب كهرم لا حياة فيه.. ينظر إليّ شذراً وربّما خوفاً.. يرفع موسى الحلاقة بيد مرتجفة والأخرى تقابلها وتعينها باهتزازها.. لستُ أدري هل كان الخوف من ذبحي أمْ أنّ الرّجل هزّهُ عُطاسي القويّ فأربكه؟!

ذاك العُطاس اللعين، كان يزداد كلّما تقدّم بي العمر.. أصبحت أكثر عطاسـًا حين أصحو من نومي.. حين أدخل أو أخرج من المنزل.. حين أخرج من الحمّام.. حين أشمُّ بعض الرّوائح خاصّة العطريّة منها.. حين أنتقل من مكان إلى آخر تختلف درجة حرارته.. وحالات أخرى عديدة.. اضطررت لزيارة الطبيب.. أفاد بأنّها نوع من أنواع الحساسيّة التي لا علاج شافٍ لها.. أعطاني بعض الأدوية التي توقفها ما دام مفعول الدّواء يعمل.. تعود من جديد بعد انتهاء مفعول العلاج.. قرّرت بعدها أن لا أتناول تلك الأقراص، وأن أعتاد هذا الواقع الجديد.. لمْ ينته العطاس.. المفاجأة التي لا يتوقعها أحد، هي أنه داهمني الآن عطاس أوقفني عن الكتابة.. لقد مرّ ولدي بجانبي.. عطره فوّاح.. أعشق هذه الرائحة وأحبّها حبّـًا جمّـًا.. أصبح همّي بين عطاس وضحك لهذا التوافق العجيب بموضوع العطاس والكتابة.

أنهى تحديد سالفيّ ورقبتي وخلف أذنيّ.. وقف إلى جانبي يرفع الموسى بيده.. ينظر إليّ في المرآة.. انحنى قليلاً، وبدأ يحدّق في شاربيّ.. بدأ يقرّب الموسى نحوهما.. أرقبه مستذكراً كلمات تلك الصبيّة.. مددت يدي بلطف نحو يده.. أمسكت بمعصمه وطلبت منه عدم لمس الشاربين.. ضحك وقال لي بأنّه لن يمسّهما.. وأشار إلى

شعرات لا يتعدّى عددهنّ ثلاث أو أربع شعرات تخرج من الشّامة التي تعلو شاربيّ.. بحركة واحدة وبكلّ رشاقة، قام بإزالتهن.

تستطيع أنْ تمسّ الكثير بالرّجل الشرقي.. أمّا أنْ تمسّ شاربيه بأيّ شكل من الأشكال، فتلك مصيبة لا تُغتفَرْ.. كيف لا وهو عنوان الأنفة، العزّة، الكرامة، الكبرياء، الرجولة، الشرف، الشهامة،.. ومع ذلك، تُسلّمهما للحلّاق بتمام الرضا والسرور.. هو الوحيد الذي يجرؤ على لمسهما، لا بلْ تشذيبهما ودون خشية أو وجل.. لكن، بعد استشارتك وأخذ الإذن منك.

مَنْ يَحْلِقْ للحلّاق فلِبْسْ

بـدأت في مرحلـة الشـباب والمراهقـة.. أصـبحت أحـرص علـى التزيّن مرّة كـلّ شـهر تقريبـاً.. أتقنـت التعامـل مـع الحـلّاق وتوجيهـه لرغباتي.. متغيّرات كثيـرة بـدأت تظهرعليّ.. كمـا كـلّ الشـباب، كـان عليّ أن أتجمّل لأنال ثناء الصبايا وتقبلهن لأيّ تعليق منّي.. ما أنا إلا شـاب لا أختلـف عـن البـاقين.. لـم يكـن بحسـباني أنّنـي أسـير بطريـق خاطئ.. كان عليّ أن أتزيّن حتى أكون جميلاً.. أقبـل نفسي ويقبلني الناس.. هو طيش الشـباب والمراهقـة.. أوهـام كنـت أتصـوّرها.. لـم تطل تلك الفـترة لأكتشـف خطـأي وسـوء رغبـاتي.. تراجعـت بسـرعة كبيرة للالتزام والبعد عن ذاك الطريق الوعر.

بدأت موضة بنطلون الشارلستون والسّـوالف الطويلـة بـالظهور.. لم أقتنع بها أبداً.. بقيت بلا تجديد وملاحقة للموضة.

فلِـبْسْ كـان يحـرص في كـلّ مـرّة علـى السـؤال عـن نـوع القَصّـة واللّحية والشوارب.. أضاف لهنّ الآن موضوع السّـوالف.. لـم يطـل الأمر.. دعاني أحـد الشـباب لحفـل زفافـه وأكّـد عليّ لحضـور حمّـام العريس وحلاقته.

في المخيّم كان **فلِبْسْ** وحلّاق آخر اسمه أبو العبد.. أو كما كنّا نسميه (حلّاق الختياريّة) لِكِبَرِ سنّه.. أمّا **فلِبْسْ**، فكان حلاق الشباب، فقد كان رجلاً ثلاثينيّاً أو أربعينيّاً على أغلب تقدير.. لم أقم بزيارة إلى أبي العبد ولو مرّة واحدة رغم أنّ صالونه يجاور ملحمتنا.. ومن أجمل النوادر التي حصلت مع أبي العبد:

حضر إليه أحد الزبائن من كبار السن.. عندما أنهى له الحلاقة، قام الزّبون بوضع الأجرة في يد الحلّاق كما هي العادة.. نظر إليها فإذا بها نصف الأجرة.. طلب منه باقي الأجرة.. رفض الزّبون ذلك بشدّة وبدأ يصرخ عليه.. دخل أحد المارّة ليُنهي الخلاف بينهما.. عندما علِم بأنّ الزّبون نقد الحلّاق نصف أجرته، طلب منه أنْ يُكمل ما بقي بذمّته.. صرخ الزّبون بصوت عالٍ وقال:

«أذكر الله يا رجل.. يريد منّي أجرة كاملة وأنا أصلع أكثر من نصف رأسي.. فكيف يريد منّي أن أدفع مثل باقي النّاس أجرة كاملة؟ نصف الرّأس ليس كالرّأس.. لن أدفع أكثر من ذلك»!

احتدم الخلاف بينهما.. ارتفعت أصواتهما.. توافد بعض رجال السوق.. بعد نقاش مرير، قام الزّبون بدفع نصف الأجرة المتبقي.

قام بعض أصدقاء العريس بتحميمه.. أطالوا وهم يغنّون ويداعبون العريس.. نجلس على باب غرفة الاستحمام.. البعض منّا

يغنّي والبعض يجلس صامتـًا.. بعض من كانوا بسنّي قاموا بإشعال سجائرهم والتدخين إيذانـًا منهم بأنّنا أصبحنا شبابـًا.. وكما يقول المثل الشعبي:

«حلاة الشاب سيجارته».. هذا ما كان يتداوله الناس.. حتّى إنّ بعض الرّجال أو النساء، كانوا يحثّون ابنهم المراهق على التدخين ليروه رجلاً!

خرج العريس.. حميَ الوطيس.. اشتعلت السّاحة بالنّط والرقص والغناء:

«طلع الزّين من الحمّام.. الله واسم الله عليه.. طلع الزين من الحمّام.. كلّ أحبابه حواليه.. طلع الزّين من الحمام.. ».

شابّان يمسكان بذراعي العريس.. سارا به إلى أن وصلا لكُرسيّ تمّ وضعه خصيصـًا للعريس ليتمّ الحلاقة له.

تقدمّ **فلِبْسْ** مزهوّاً بنفسه.. يحمل شنطة صغيرة بيمينه وكأنّه شخصيّة ذات مكانة مرموقة.. جميع العيون تتّجه إليه.. الكلّ يرحّب به.. يمازحونه ويداعبونه.. الأمل يحدو الجميع أن يقوم بإتقان الحلاقة للعريس.. يوفّرون له جميع أسباب الرّاحة.. يُبعدون عنه الأطفال.. أحضروا كرسيّـًا خاصّـًا ليضع عليه شنطة العدّة.. بدأ يُداعب شعر العريس الطويل.. يتخلّله بين أصابعه وكأنه يتفحصه

وربّما ليلفت انتباهنا إليه.. عليه أن يعمل على مهلٍ لنُكثر من الغناء للعريس وأهله.. يعمل بتأنٍّ وحرص شديدين.. يعمل قليلاً ويقف طويلاً.. يحاول أن يُبقي عينيه على رأس العريس وكأنّه يتفحّص لوحة فنيّة يرسمها.

شدّني شعر **فلِبْسْ** الناعم، الأسمر، المرتّب، الممشوط بعناية ورعاية ظاهرة.. كانت هذه هي نقطة البداية لتساؤلات بلا إجابات.. لم تكن هي المرة الأولى.. فقد تساءلتُ في نفسي عمّن يحلق للحلّاق **فلِبْسْ**؟

لمْ أجد الإجابة.. ومثلي مثل الغالبيّة العظمى، كنت أخجل من هذا السّؤال.. أمّا الآن فالسّؤال بات ملحّـًا.. لكن، تبقى الخشية مِنْ أنْ أصبح أضحوكة للشباب.. دفنت سؤالي بداخلي ولم أجرؤ على البوح به لأحد طيلة حياتي.. حاولت أنْ أجد الإجابة من ذاتي.. تساؤلات عديدة بدأت تخطر على بالي.. أحاول الإجابة عنها علّي أصل إلى جواب شافٍ..

أوّل تلك الأسئلة التي تبادرت إلى ذهني هي:

هل يحلق الحلّاق عند حلّاق آخر؟ هل يحلق **فلِبْسْ** عند أبو العبد؟ هل يقوم أحد أصدقائه بالحلاقة له وبتوجيه منه؟ هل يقوم بالحلاقة لنفسه بنفسه؟ هل يحلق بالمدينة أو ببلد أخرى؟ كان لا بدّ

لي من إيجاد إجابة لهذه التساؤلات معتمداً على ذكائي.. وبينما أنا هائم في تفكيري وانشغالي بشعر الحلّاق.. عمّ هدوء مفاجئ حين أخرج **فلِبْس** من شنطته شيئاً يشبه المسدس.. الكلّ واجمون.. ينتظرون أن يعرفوا شيئا عن هذا الجهاز.. البعض تعجّل بسؤاله.. وقف **فلِبْس** كالقائد المنتصر بشموخ وعزّ.. يستعرض ما بيده.. يرفعه كيْ يراه الجميع.. يرفع رأسه إلى الأعلى.. يجول ببصره على الجميع وكأنّه يبلغهم بضرورة الانتباه والتّركيز على ما سيقول.. هذا الجهاز، من المؤكد أنّه مفاجأة جديدة.. تنحنح.. وضع يده على رأس العريس الذي قام بغسله قبل لحظات وقال:

لا تتفاجؤوا.. أرى الدهشة في عيونكم.. هذا هو جهاز السّيشوار.. قرّرت أن يكون عندي مواكبة لتطوّر المهنة.. كما تعلمون، فمنذ مجيء الكهرباء إلى المخيم بدأتُ بتطوير الصّالون والمعدّات.. لن نختلف عن صالونات المدينة.. سنكون مثلهم وأكثر.

سنحت فرصة ذهبيّة له كيْ يقوم بدعاية لصالونه.. سيُحاول استرجاع بعض زبائنه الشباب الذين انقطعوا عنه إلى المدينة.. بدأ الشباب ينظرون إلى مصالحهم واحتياجاتهم الخاصّة.. لمْ يعُدْ يعنيهم أصحاب المهن ورضاهم بقدر ما يعنيهم التطوُّر.

قام بسحب شعر العريس بالسّشوار، والدّهشة والانبهار يرتسمان على وجوه الكثير من الشباب والحاضرين.. لفد ظهر شعره الأجعد مسترسلا ناعما.

(جلوتان) حصل عليهما العريس.. جلوة (إشراقة) الحمام بعد انقطاع عن الاستحمام لفترة حتى تظهر له بهجة وإشراقة.. أمّا الأخرى، فكانت من سحب شعره الأجعد ليظهر وكأنّه ينساب كشعر ذيل الحصان.. بعدما اكتمل من سحب شعره، بدأ بتشذيب أطراف الشعر بالمقصّ.

جلس يستريح قليلاً وليترك لوحته للناظرين يستمتعون بها.. ارتفعت أصوات الشباب بالغناء والأهازيج.. قام بعضهم بدبكة حماسيّة.. أمّا **فلِبْسْ**، فقد أشعل سيجارة وبدأ ينفث دخانها بعزّة وكبرياء.. تناول ماسورة الخيطان من شنطته.. لفّ طرف الخيط على إصبعين من أصابع يده اليسرى.. ثمّ قام بلفّ إصبعين من يده اليمنى.. بدأ يشدُّ الخيط مباعداً بين يديه تارة ويضمّهما تارة أخرى جاعلاً وسط الخيط يلامس خدّ العريس فينقلع الشعر كما نقلع العشب من الأرض.. قام بتنظيف خدّيه وأعلى حاجبيه محاولاً أن لا يترك أيّاً من ذاك الشعر الخفيف.. في ما نسمّيه عمل الخيط، يقوم الحلّاق بحركتي الكرّ والفرّ.. يكرُّ ويقترب بفمه الذي يُمسك به

طرف الخيط من وجه الزّبون.. يُهاجم الشعيرات التي تنمو على خدّه أو جبهته.. يلتفُّ الخيط عليها.. يحتويها بين ثناياه.. يفرُّ مبتعدا إلى الخلف وصيده مكبّل بالخيط.. تلك الغنائم الشعريّة ستؤول لسلّة الزّبالة.. يكرّرُ عمليّته حتى يُفني كلّ شعرة أو شُعيرة نبتت في مكان غير مرغوب به.. بعدما انتهى، قام بدهن وجه العريس بكريم جديد بدلاً من البودرة وأغدق عليه من الكولونيا وعطر فرنسيّ.

عجبت لهذا الاهتمام الزّائد وكثرة المواد التي استخدمها.. لقد خرج على المألوف.. لكنْ عجبي واستغرابي هذا زال بعدما مال عليّ أحدهم وهمس في أذني قائلاً:

لا تستغرب يا صديقي.. أرى صدمة في عينيك مما يجري لحلاقة العريس.. كلّ شيء بثمنه يا صديقي.. حلاقة العريس تفوق في أجرتها عمل يوم كامل في الصّالون.

اللّحاق بالرّكب

بعد وصول الكهرباء إلى المخيم، قام **فلِبْسْ** بتطوير نفسه وصالونه.. لا بدّ له من مواكبة التطوّر.. أمّا أنا، فكان لا بدّ لي من اللّحاق بالرّكب.. قرّرت أنْ أجاري العصر بموديلاته حتّى لا يقول الشباب بأنّني رجعيّ.. ذهبت إلى صالون **فلِبْسْ** لألمس التحديث والتطوير الكبير لديه.. أمّا عاداته خلال عمله فبقيت كما هي.. كأن يقوم بتغيير محطّات الراديو عدّة مرّات.. لا يعنيه ما يسمعه ولا يهمّه بشيء.. فقط، يجب أن يعمل باستمرار.. عندما يقوم بتغيير المحطة عن أغنية لصباح، سميرة توفيق، فيروز، أمّ كلثوم، شادية، نجاة الصغيرة، عبدالوهاب، السنباطي، سيّد درويش، مثلاً.. نحتج ونطلب منه العودة للمحطة.. لم تكن التقارير الإخباريّة أو البرامج الحواريّة تعنينا بأيّ حال.

تبدأ حركاته بعد ربط الملاية بالمقص والمشط فوق رأس الزّبون.. يبدأ يدندن بعيداً عمّا يبثه المذياع وكأنّه يغنّي بأغنية لن يفهم أحد منها شيئًا.. لا أشهد بأنّني فهمت يومًا ما يدندن به إلّا أغنية وحيدة للصّبوحة (كما كان يسميها الناس وهي المطربة صباح).. لقد كانت أغنية:

«عالبطاطا البطاطا..
يا عيني عالبطاطا..
تغدّيني خبزة وزيتونة..
وتعشّيني بطاطا.. »

ولا يزيد عليها سوى الدّندنات المبهمة.. يوقف عمله ويقوم بمسح الكاونتر أمام الزّبون رغم نظافته وعدم وجود أيّ غبار أو شعر عليه.. يعود للعمل ولا تنقطع دندناته.. يبتعد عن الزّبون بمقصّه ومشطه.. يقوم بتحريك أحد البراويز قليلاً.. يُعاود النّظر إلى رأس الزّبون.. يغلق الراديو ويفتح التلفاز.. يقلّب محطاته الست.. جهاز صغير الحجم باللّونين الأبيض والأسود.. يعود لمحطة يقوم هو بتحديدها.. إذا لم ترُق للزّبون، يغلق الجهاز ويعود لفتح المذياع.

ما لفت انتباهي هو أنّه كان كلّما تناول قطعة من أدوات الحلاقة، يقترب ليهمس في أذن الزّبون ويخبره بأنّ أداته هذه هي ماركة فيليبس (*PHILIPS*) العالمية التي كانت من أشهر الصناعات في ذاك الوقت.. للحقيقة فإن مقصّه والموسى، جهاز السّيشوار، الراديو، التلفاز، وجميع معدّاته كانت من تلك الماركة العالميّة *PHILIPS*.. لم آبه لكلّ هذه الوشوشات.. كان همّي مراقبته وهو يقوم بعمل الحلاقة.. يقوم بقصّ بعض الشعر ثمّ يباغتك بسؤال عن حدث ما

حصل في المخيّم.. يأخذ منك القليل من المعلومات.. ويأخذ من آخر القليل.. يصبح مُلمّاً بأطراف الموضوع كاملة.. لا يترك شاردة ولا واردة إلا يعرفها.. إنّه بيت المعلومات وخازن الأسرار.. لا يبوح بما يعرف.. هو يشتري ولا يبيع.. يبني علاقاته من خلال حواراته.

مهنة حبيّة ودّية.. تعتمد على بناء العلاقات والفن.. عندما يقوم بتزيين أحدهم ويرى السرور يرتسم على وجهه، يؤكّد عودته مرّة أخرى.. هناك مثل يقول:

«الحلّاق واللّحام لا يجب عليك تغييرهما».. هاتان المهنتان تحتاجان لزمن وتجارب عديدة حتّى تُبنى الثّقة بصاحبيهما.. أمّا الحلّاق فيُعطى بقشيشاً عند الإجادة.. يُحرم من هذا القشيش إن لمْ يستطع إقناع الزّبون بحلاقته.

هذه المرّة، طلبتُ منه أن يُطيل السالفين وكنّا نسميهما (سوالف جزمة) لأنها تمتدّ من الأعلى نزولاً مع توسّعٍ بعرضها ليصبح شكلها كجزمة البلاستيك طويلة السّاق.. حلاقة الذّقن على الموس.. أمّا الشاربين فلا يمسّهما إلا لمن أراد.. لن أنسى كلمات تلك الفتاة بشأنهما.. بدأتُ مرحلة جديدة من اللّحاق بالرّكب.. بدأتُ أحدّد طريقة القصّة ونوعها.. أهتمّ بالأمور الصّغيرة.. لا أترك كرسيّ

الحلاقة قبل أنْ أتفقّد نفسي من كلّ شيء وأطمئنّ أن لا عيوب بالحلاقة.

خرجت من الصّالون مزهوّاً بنفسي.. بدا لي أنّني لست أنا.. سرت في الشارع أمسح بيدي على شعري حيناً وعلى رقبتي حيناً آخر.. أطمع بنظرات استحسان من الشباب ومن البنات.. ركبت الباص إلى المدينة.. قمت بشراء قميص أبيض اللّون وبنطالاً أزرق بلون السماء.. حرصت على أن يكون البنطال (شارلستون) يتسّع من أسفل رجليه ضعفي بنطالي القديم أو يزيد.. كيف لا وقد قرّرت مواكبة الرّكب واللّحاق بالموضة؟!

للحلّاق يوم عطلة أسبوعيّ مقدّس هو يوم الإثنين.. يشاركه في هذا اليوم اللحام.. تراه ينادي بأيّام الآحاد قائلاً:

«بكرة التنين (الاثنين) مفيش لحمة».. هذا التذكير للناس بيوم اللّحام المقدّس.. على الناس أن يشتروا ما يلزمهم من لحوم بيوم الأحد.. أمّا الحلّاق فتقتصر قداسة يوم عطلته على الصّالون فلا يقوم بالعمل به.. الاستثناء فقط هو للعريس إذا صادف يوم زفافه يوم الاثنين.. يقوم بتزيينه في منزله وليس بالصّالون.

تطوّر صالون **فلِبْس** أكثر.. أضاف طربيزة في وسطه.. وضع عليها بعض الأعداد من مجلّة العربي التي كانت تصدر من الكويت حتى

لا يدخل الملل نفس الزّبون وهو ينتظر دوره.. قام أيضاً بشراء تلفاز صغير بالأبيض والأسود.. رغم كلّ ذلك لا تنقطع دندناته وحركاته التي لا أرى لها سبباً غير إطالة زمن الحلاقة ليُشعر الزّبون باهتمامه ويحظى بالبقشيش أو العودة مرّة أخرى.

مواكبة الرّكب لا تقتصر على الهيئة فقط.. في هذا العام سأقوم بتقديم المترك.. في العام القادم وبعد النجاح سأنتقل إلى المدينة للبدء بالمرحلة الثانويّة.. ولكلّ زمان دولة ورجال.. هل سأبقى مع أبو نبيل؟ هل سأنتقل بحلاقتي إلى المدينة؟ كما ذكرت سابقاً أنّ الشباب لا يهمّهم سوى أن يكونوا راضين ومتماشين مع عصرهم وموضاته.

اقترب موعد امتحانات المترك.. طال شعري ولحيتي.. لن أقوم بالذهاب إلى الصّالون.. أحتاج الوقت بشدّة من أجل الدّراسة.. ما أحصل عليه منْ وقت فراغ قصير، أستغلّه بأمور داخل المنزل.. ضغط نفسيّ من الدراسة، وضغط نفسيّ آخر أتسبب به حين أنظر لنفسي بالمرآة.. لذلك أصبحت أتجنّب النظر للمرآة ما استطعت.. هجرت صديقتي هجراناً جزئيّاً ومؤقّتاً.

أنهيت المترك وكانت ثقتي بنجاحي كبيرة.. أسرعت إلى صديقتي المرآة.. حين رأيت ما عكسته، استأت من نفسي.. اعتذرت

من صديقتي.. وعدتها في ذاك اليوم أن تراني بأجمل هيئة وأحلى صورة.. سارعت إلى صالون **فلِبْس** وطلبت منه أن يتعب قليلاً على تزييني لأغيّر من نفسيّتي التي حطّمها المترك.. ضحك بحبّ ولطف ووعدني أنْ أخرج مسروراً.. كان يسلّيني بحواراته ودندناته.. أمّا أنا فقد ذهب فكري بعيداً لذاك السؤال المحيّر.. من يحلق للحلّاق **فلِبْس** بهذا الإتقان وهذا الجمال؟ المصيبة الكبرى أنّ سؤالاً ثانياً طرق أبواب تفكيري المغلقة.. لماذا يناديه الناس **بفلِبْس** وليس بأبو نبيل مثلاً؟ قلّة قليلة من الناس تعرفه بأبو نبيل.. كالعادة لم أجرؤ على سؤاله.. بقيت أنظر إلى شعره علّي أجد الجواب بين خُصَلِ شعره المنساب.. حاولت كثيراً وأنا أعتصر أفكاري.. أحاول أن أستخدم ذكائي لحلّ اللغز المحيّر.. تأثّري بقراءة مؤلّفات أجاثا كريستي جعلني أعتقد بأنّني سأتقمصّ شخصيّة المحقق وحلّ اللغز.. ولكنني اكتشفت بأنّه أنهى عمله على خير ما يرام.. قمت عن الكرسيّ وبقيت الإجابة غائبة عنّي!

السّكّة والنيجرو

انتقلت للدّراسة في المدرسة الثانويّة بطولكرم.. كان عليّ أنْ أقوم بتسريحة تتماشى مع الوضع الجديد.. هناك في المدينة، أعداد هائلة من الطلاب.. من المدينة والمخيّمات والقرى التابعة للمحافظة.. قرّرتُ التّريُّث حتى انتهاء العطلة الصيفيّة واقتراب موعد الالتحاق بالمرحلة الثانويّة بطولكرم.. جاء أحد الغرباء يسأل عن شباب للعمل في منطقة بيسان على أن تكون الأجرة مضاعفة بسبب المبيت هناك.. وجدت أنّها فرصة سانحة لي ولأصدقائي أنْ نعمل معًا وبراتب مغرٍ.. طلبتُ منه أنْ يوقف البحث عن عمّال وسأقوم بتزويده بنخبة من الشباب الأقوياء.. قام بطلب خمسة من الشباب على أن نعمل لما قبل انتهاء العطلة الصيْفيّة بيوم أو يومين دون أن نعود لبيوتنا حتّى انتهاء العمل.. وافقنا وقرّرنا مرافقته فورا.

خلال تلك الفترة، لمْ يُتَح لنا أن نحلق رؤوسنا ولا ذقوننا.. نما شعرنا كثيراً حتى أصبحنا كالهبيين•.. اسودّت بشرتنا بسبب احتراقها

• الهيبيز: جماعة انتشرت في أمريكا وأوروبا ودولة الاحتلال الإسرائيلي في أواسط القرن العشرين، كانوا لا يكترثون بنظافة أجسادهم وملابسهم، ويهملون شعورهم.

من أشعّة الشمس اللّاهبة.. احتملنا قلّة النظافة والاستحمام.. المال يُغرينا لأن نحتمل أوضاعًا أسوأ من هذه.

مضت الأيام صعبة وثقيلة.. صبرنا ونلنا وفرة من المال تستحق ما مررنا به.. عدنا منهكين إلى المخيّم وكأنّنا غرباء عنه وكان ذلك قبل انتهاء العطلة بأسبوع واحد.. كان لا بدّ لنا من الرّاحة.. اشتياقنا للأولاد والسكّة والمخيم كبير.. ارتحنا ليوم واحد فقط.

في صبيحة اليوم التالي، قررت الخروج للقاء الأصدقاء.. لمْ أفكّر بالحلاقة.. باقي عدّة أيّام ونباشر الدّراسة.. كأنّنا على موعد، التقينا عند الفنطاز، وهو برج حديديّ عالٍ كان يستخدمه الإنجليز لمراقبة السجاء العاملين في الكسّارة الواقعة بجانب سكّة الحديد.. تلك الكسّارة التي كان الإنجليز يستخدمونها لطحن الحجارة التي يأخذونها من جبل الأحراش بالمخيّم ليستخدموا موادّها في أعمالهم الإنشائيّة خدمة لجنودهم.. كما أنّ المخيّم كان معتقلاً لهم يزجّون به المعتقلين الفلسطينيين الذين كانوا يقاومونهم فيحكمون عليهم بالمؤبّدات والسنين الطويلة.. كانوا يستخدمون هؤلاء السجناء في أعمال الكسّارة.. أمّا عن سبب تسمية المخيّم «نورشمس» فيعود إلى أنّ السجناء كانوا يقبعون بالزّنانين لمدّة طويلة.. لا يخرجون إلا للعمل بالكسّارة.. يوم سعدهم، هو يوم خروجهم لهذا العمل

الشاق.. رغم أنّ بعضهم كان يموت هناك من صعوبة العمل.. أمّا من يُحاول الهرب، فالقنّاص بأعلى البرج يرديه برصاصاته المغتصبة.. هنا.. كان منْ يعود من السجناء إلى الزنانين، يقول لزملائه: «أنا اليوم شفت نور الشمس.. فأتت التسمية من هذه الكلمة.

لقد قام الإنجليز بتسليم المدن والقرى الفلسطينيّة لليهود.. تركوا وراءهم السّكة والعربات والعديد من عجلات العربات الموضوعة على قضبان السّكة.. قام اليهود بسرقة كلّ شيء إلا من عربتين وبعض العجلات ومسافة قصيرة من القضبان.

استمتعنا كثيراً باللعب هناك.. بدأت أركب وآخران على إحدى هذه العجلات.. اثنان آخران كانا يدفعانها.. شاء الله أن أسقط.. ما بين قضيبيّ السّكة حجارة حادّة.. أصبت برأسي.. كان نزف الدّم غزيراً.. قام أصدقائي بإسعافي.. السّت ملكة الممرضة لا تعرف الرحمة بعملها.. أنّبتني بشدّة.. قامت بقصّ شعر منطقة الجرح بمقصها الحاد.. وضعت اليود على الجرح وقامت بلصق شاشة فوقه.. طلبت مني أن أزورها كلّ يوم للغيار على الجرح حتّى يشفى.

كان عليّ أن أقصّ شعري يوم الخميس الذي يسبق دوام المدارس بيومين.. ذهبت في ساعات الصباح **لفلِبْسْ**.. عندما رأى

اللصقة على رأسي، طلب منّي أنْ أذهب للعيادة وإزالتها.. تمّ ما أراده ولم تتردّد السّت ملكة.. وبّختني كعادتها وأزالت اللصقة.

جلست على كرسيّ الحلاقة.. وقف **فلِبْس** خلفي ينظر إلى الجرح.. هزّ رأسه وزفر معلنًا عدم رضاه عن حالي.. لم يكلّمني.. بدأ بدندناته كالعادة.. يهمس في أذني عن صناعة معدّاته الفاخرة.. يقلّب محطات الراديو حينًا، ومحطّات التلفاز حينًا آخر.. لمْ آبه لكلّ أقواله وأفعاله.. كان همّي هو كيفيّة ظهوري بعد هذه الإصابة.. عندما أنهى عمله، أشار عليّ بلبس طاقيّة أو حطّة وعقال حتّى ينمو شعري في منطقة الجرح.. وافقته بلساني، أمّا عقلي فكان بالمدرسة والطلاب.

مضى أسبوع وأكثر على حلاقتي.. دوامي يوم السبت سيكون عند الساعة الثامنة صباحًا.. جهّزت نفسي على عجل.. خرجت مسرعًا أتّجه إلى موقف الباص.. وجدتُ بعض الزّملاء يتجمّعون هناك.. أخبرني أحدهم بأنّهم سيذهبون إلى طولكرم التي تبعد عنّا ثلاثة كيلومترات مشيًا على الأقدام.. عندما استفسرت عن السبب، قال أحدهم بأنّهم يريدون توفير أجرة الباص من أجل شراء الدّخان.. وافقتهم ودعوتهم للسّير.. سألني خالد:

ماذا ستفعل برأسك المكشوف؟ ربّما يعلّق عليك أحدهم في المدينة!

قلت له بعصبيّة:

من أراد أن تلطم أمّه عليه فليُعلّق.. سيكون آخر يوم له هذا اليوم.. لا يهمّني أيّـًا كان.. أنت تعرف مَنْ أنا..

هزّ رأسه وقال:

ونحن معك.. ولا يهمّك.. سنربّي كلّ مَنْ تُسوّل له نفسه أنْ يتجرّأ ويفتح فمه.

لفت انتباهي حلاقة محمود.. سألته:

- هل أصبح **فلِبْسْ** بهذه المهارة ليجود عليك بقصّة أحسبها حديثة وجميلة؟
- لا يا صديقي.. هذه حلاقة لا يستطيعها **فلِبْسْ**..
- أبو العبد لا يستطيع الحلاقة إلا للشيّاب..
- ومنْ قال لك إنّني حلقتُ عند أبو العبد؟!
- هل فتح حلاق جديد في المخيّم؟
- لا يا صديقي..
- أخبرني بحلاقك.. لقد أثرت عصبيّتي..
- هو حلاق شاب بطولكرم..

- وما اسم صالونه؟
- الأمراء..
- في المرّة القادمة سأذهب معك هناك أو ترشدني إلى صالونه.

في المخيّم، لا أتحرّج من شيء.. كلٌّ منّا يعرف الآخر.. الجميع من طينة واحدة.. أمّا في المدينة فالأمر مختلف.. عليك أن تفرض نفسك وشخصيّتك.. وهذه لا تتأتّى إلا بالثراء أو الشّياكة وحسن المظهر.. أمّا الخيار الثالث فهو القوّة والعنتريّة.. لا يحترمون الفقير ولا الضّعيف.. إنّها حياة مختلفة عمّا عهدناه في المخيّم.. لذا قرّرتُ أنْ أضحّي **بفلِبْسْ** وأنتقل إلى المدينة بعالمها الجديد بكلّ ما فيه.. أحسبها حياة صراع البقاء.. إمّا أن نكون، وإمّا أن لا نكون.. هذه شريعتهم وهذا ديدنهم.

بعد أسبوعين أو يزيد قليلاً، طال شعري.. طلبتُ من محمود أنْ يُرافقني إلى صالون الأمراء.. اعتذر بلباقة.. ذهبت لوحدي.. أعرف ما الذي أريده.. كما أنّني رجلٌ، والرجل لا يخشى ولا يخجل من الرجال.

بدأت برودة تسري في عروق الصباح النديّ.. أنهيت صلاة الفجر في المنزل.. خرجتُ أنظر خيوط الشمس وهي تتشعب ساقطة من بين تلك الغيوم المتباعدة.. النّدى يُداعب أنفاسي فينشرح صدري..

أنظر إلى تلك اللوحة السماويّة مرة وأمتّع بصري وسمعي بأصوات وحركة العصافير التي تنتقل من شجرة إلى أخرى ومن جدار إلى آخر.. إنّها لحظة أمان لها ما دام الإنسان لم يخرج من بيته بعد.. أخلّل أصابعي بين أطراف شعري وكأنّني أتحسّسه مودعاً.. سأقوم باستغلال يوم العطلة الرسميّة هذا في الحلاقة وترتيب شعري بعدما تماثل الجرح للشفاء.. ما زال الوقت مبكراً والحلّاق يحتاج إلى ساعتين وربّما أكثر ليباشر عمله.. عدت إلى فراشي الذي ما زال يحتفظ بدفءٍ لطيف يدغدغ مفاصلي.

عاندني النوم وهجرني.. جلّ تفكيري في صالون الأمراء.. لمْ أسأل محمود عن اسم قصّته.. كيف لي أنْ أطلب من الحلّاق نفس القَصّة؟ أريد أنْ أبدو أمامه وكأنّني أعرف كلّ شيء حول أسماء القصّات الحديثة.. أقنعتُ نفسي بأنّني لن أعدم وسيلة للوصول إلى غايتي.

مرّ الوقت سريعاً.. أفاقت والدتي (رحمها الله).. باشرت بعمل الفطور.. ذهبت لمساعدتها كيْ أخرج من تفكيري ولإقناعها بإعطائي ما يلزمني من النقود.. كان سهلاً عليّ إقناعها.. أحياناً تُمانع، لكنّ ممانعتها لا تستمرّ لأكثر من دقائق قليلة.

حركة خجولة في سوق المدينة.. بعض المحالّ التجاريّة ما زال مقفلاً.. اقتربت من الصّالون فرأيت شاباً يكنسه.. قمت بعمل جولة صغيرة للسوق ثمّ عُدْتُ إلى الصّالون.. وجدت الشاب الذي كان يكنس المحل يقف بالباب ويستمتع بتدخين سيجارته.. سلّمتُ عليه.. رحّب بي وهو ينظر إلى شعري.. دعاني إلى الدخول سائلاً إنْ كنت على عجلة من أمري؟ أجبته بأن لا عمل لدي وله أن يأخذ وقته.. أجلسني على كنبة مصنوعة من الجلد الأسود.. صالونه المُبهر بجماله وترتيبه ونظافته لمْ أعتدْه عند **فلِبْس**.. الجدران تخلو من البراويز.. صور لشباب أجانب يتزيّنون بقصّات مختلفة ومتنوّعة.. أعجبتني واحدة تختلف عن قَصّة محمود.. الشعر لا ينساب كالعادة.. إنّه يتلوّى على بعضه بانتظام وجمال ليشكّل قطعة واحدة من الشعر تتربع كتاج على الرّأس.. سألته عن تلك القصّة.. نظر إليّ وما زال ينفث الدّخان بتعجرف وكأنّه يتعالى عليّ وقال:

- هذه القَصّة جديدة يا صديقي.. قمت بعملها لعدد قليل من الشباب..

تقدّم نحوي وبدأ يخلّل أصابعه في شعري قائلاً بأنّها تناسبني كثيراً لأنّ شعري من النوع الخشن قليلاً وغير المنساب، وإن هذه القَصّة ستخفي كلّ هذه الصّفات.

كأيّ حلّاق، حين جلست على الكرسي وقام بربط الملاية حول عنقي، سألني عن حلاقة الذّقن والسوالف.. أمّا القصّة فقد اتّفقنا على أن تكون نيجرو.. أجبته بأنّني أريد قصّة تُفتن بها بنات العدويّة، على أن لا يمسّ الشاربين أبداً.. ضحك وقال: ولا يهمّك.. «رح أخلّي البنات هي اللي تلحقك».

لم أسمع منه دندنات ولا أغاني.. لم يقم بحركات مثل **فلِبْسْ**.. ما لاحظته أنّه كان يتوقّف عن العمل بين فينة وأخرى.. يسير نحو الباب.. ينظر يميناً ويساراً ثمّ يعود ليبدأ عمله بمشط شعري.. أحياناً كان يقف بالباب محدّقاً بشيء ما.. حاول أن يبني علاقة مودة بيني وبينه من خلال بعض المداعبات والنّكات القليلة.. مهنته تحتّم عليه أن يكون صديقاً للزّبون.

بزمن يقلّ عن زمن الحلاقة عند **فلِبْسْ**، أنهى عمله.. جمّلني وزيّنني.. أمّا أجرته فكانت نفس أجرة **فلِبْسْ**.. سررت كثيراً بتلك الحلاقة التي غيّرت من شكلي المعتاد.. حين عدت إلى المخيّم، قام العديد من الشباب بسؤالي عن تلك القصّة وأين قمت بها.. أجيبهم مزهوّاً بذكر اسمها أولاً ثمّ أخبرتهم بأنّها في صالون الأمراء بطولكرم.

المهمّ أنّ ذاك السؤال حول مَنْ يحلق للحلّاق **فلِبْسْ**؟ لم أجد له جواباً.. عندما رأيت جمال ودقّة حلاقة الحلّاق الجديد سامر،

أضفت سؤالاً آخر لذاك السؤال وحيْرة جديدة.. مَنْ يحلق للحلّاق سامر؟ لا بل من يحلق للحلّاقين؟

في البيّارة

الأيّام تمضي مسرعة.. تأخذ من أعمارنا واهتماماتنا تتزايد.. التركيز على الأناقة والشكل الخارجي أصبح ضرورة بالنسبة لي.. يقولون في المثل الشعبي:

«مُرّ عن عدوّك جوعان، ولا تمرّ عن عدوّك عريان».. كناية عن الاهتمام بما يراه الناس.. فالحلاقة والمظهر العام للشخص يعكسان شيئًا من شخصيّته وربّما يدلان عليها.. لمْ أكن مقتنعًا بقَصَّة النيجرو.. كنت بين أمرين، المواكبة للموضة والشخصيّة.. حاولت المزاوجة بينهما واختيار أقلّ الضرر.. باتت الحلاقة تعكس أكثر من الدلالة على الشخصيّة.. ربّما أصبح البعض ينظر إليها من منظور التربية والثقافة.

الجمال يلفت الانتباه بدءاً من الرأس.. وجمال الرأس ينتهي بالرقبة.. هذا الجزء من الجسم، هو منطقة اختصاص وعمل الحلّاق.. يبدأ بشعر الرأس وينتهي بأعلى الرّقبة والذّقن.. حتى الجبال، يبدأ النظر إليها من القمم.. الهبوط في النظر يتضاءل ليصبح النظر اعتياديًا.. لا يتفوّق جمال السفوح على أعالي القمم.. وكذلك جمال الإنسان يكون في رأسه وأعلاه.. جمال الشعر، الحاجبين،

الرّمشين، الأنف والشفتين، وشعر الذّقن في الرجل.. أمّا في الأنثى فجمال الخدّين والذّقن وشكلهما وتورّدهما فهو جمال لافت.. هذه مناطق جمال ظاهرة.. أمّا المخفيّة داخل الرأس فهي العقل والأسنان.

ذات نهار صيفيّ جميل، التقيت بأربعة من أصدقائي يجتمعون في منطقة البطاقة.. بادرني محمود بالطلب منّي لمرافقتهم.. سألته:

- إلى أين أرافقكم؟
- إلى بيّارة السّت زبيدة..
- أبو الشفرات أيضاً، سنزور بيّارته..
- وهل هناك شيء محدّد تودون عمله؟
- لا والله.. طشّة وتغيير أجواء..
- حسناً.. هيّا بنا فأنا معكم..

بزمن قصير وصلنا إلى المدرسة الواقعة في طريقنا.. لمْ نتوقّف هناك.. تابعنا المسير حتّى التقينا بحارس بيّارات السّت زبيدة (أبو سليم).. جلسنا معه نحادثه ونمازحه كسباً لودّه وثقته حتى يسمح لنا بالمرور.. الطريق القصيرة تخترق إحدى البيّارات من منتصفها.. بدأ يحدّثنا عن مغامراته مع الحيوانات البريّة من كلاب سائبة إلى النّسناس والضّبع والنّيص وغيرها.. مغامراته البطوليّة تدلّ على

شجاعته وقدرته على المحافظة على البيّارات والمزروعات التي يحرسها.. أحاديث وقصص عاديّة في بعضها، مخيفة في بعضها الآخر.. ربّما كان يقصد إخافتنا حتّى لا نتعمّق في الممتلكات الواقعة تحت نفوذه.. بدا الخوف ظاهراً على وجه عليّ.. قال:

- والله شعر بدني قبٌّ..

ردّ عليه محمد قائلاً:

- صدقت.. وأنا وقف شعر رأسي.

نظرت إلى علي فإذا به يُمسك رأسه بكلتا يديه.. يضغط بهما على رأسه من الأمام ويحرّكهما إلى الخلف وكأنّ شعره قد انتصب واقفاً ويقوم بهذه الحركة بإعادته لحالته السابقة ويُسقط الخوف من أطراف شعره.. أمّا محمد، فقد رأيته يضغط بباطن يده اليمنى على ذراعه الأيسر.. بادئاً من كوعه نزولاً حتّى كفّ يده.. يقوم بتبديل الحركة لليد الأخرى وكأنّه هو الآخر يُسقط الخوف حين يُعيد شعر ذراعه لطبيعته فيوصل الخوف لكفّه ويسقطه أرضاً.. حركات نفسيّة لا أكثر ولا أقلّ.. الخوف شعور وليس شيئاً ملموساً أو محسوساً.

للشعر دلالات غير الأناقة والجمال.. كلمات علي ومحمد تدلّ على خوفهما.. كلمات يختصر فيها الناس التعبير عن شعورهم بأمر مخيف أو جلل.

لمس الحارس أبو سليم خوف محمد وعلي من حركاتهما.. نظر إلينا مزهوّاً بنفسه وكأنه حاز على نصر عظيم على خمستنا.. قال لنا بتعجرف وكأنه قائد عظيم يمتلك من الحنكة ما نعجز عن فهمه:

«إذا بدكم تروحوا تشربوا من ماتور السّت زبيدة، ما عندي مانع.. بس لا تصيبوا إشي.. ترى أنا ما بخفى عليّ شيء.. انتوا شباب محترمين وبتفهموا وأنا عارفكم كلكم.. خليكوا محترمين.. يلا مع السلامة».

اعتدنا على أسلوب أبو سليم وتعليماته ليرهبنا.. نُقرُّ له بكلّ ما يطلبه.. نعِده ولا نصدُقه.. لا نخالفه بألسنتنا حتى لا يمنعنا من المرور ونضطرّ إلى الالتفاف من مسافات طويلة وبعيدة.. من موقعه لا يحتاج الأمر منّا لأكثر من بضع دقائق للوصول إلى البئر الارتوازي الذي يردّ الروح بمياهه العذبة والباردة.

هناك أيضاً وجدنا حارس الماتور الذي رحّب بنا ودعانا لأن نشرب من ماسورة الإنشات الأربعة والتي كانت تضخّ الماء إلى البيّارة المجاورة.. تنساب مياهها وكأنّها نبع زلال يتباهى بصفاء ونقاء مياهه.. سرنا بمحاذاة القناة الناقلة للماء حتّى قرّرنا الجلوس تحت شجرة برتقال سيتأخرّ ريّها بعض الوقت.. صوت خرير الماء

المارّ بجانبنا وكأنّه سيمفونيّة ترافقنا في جلستنا.. حوارات وأحاديث مختلفة تُطرح ولا تُكتمل.

كنتُ أنظر إلى الماء مستمتعا بجريانه وصوت خريره.. صفاؤه كالكريستال لا تشوبه شائبة رغم أنّه ينساب بسلاسة فوق التراب والحصى.. أقوم بالتّمسيد على شاربي الأيسر بيدي اليسرى.. أمسكُ بطرف شاربي الأيسر بأصابعي الوسطى والسّبابة والإبهام.. أسحب الشعر للأسفل برفق وأناة كمن يمسح بيده على رأس طفل رضيع.. حركة تدلّ على أنّ صاحبها يفكّر بأمر ما ويريد أن يصل إليه بهدوء.. متعة أحسّها بهذه الحركة.. ربّما لألفت انتباه الآخرين إلى أن شاربيَّ كبُرا وباتا يُمسكان.. أستطيع الآن الحلف بشاربي.. عندما يُقسم الرجل ممسكًا بطرف شاربه، فهو صادق ويُضمّن حديثه رمز الشاربين وهو الشرف والرجولة، فلا يحنث بقسمه أو وعده.. رمز تعارف عليه الرجال، توارثناه كابراً عن كابرٍ وأورثناه لأبنائنا كما فعل أسلافنا.

نبّهني محمد من سرحاني هذا..:

- هالو.. أين وصلت يا توفيق.. الّلي ماخذ عقلك، يتهنى بيه.. وين وصلت يا رجل؟
- لا شيء أبداً.. سرحت بهذه الأجواء الجميلة..

- قل الحقيقة.. هل هو الحب؟
- وعلى أيّ أساس حكمت بأنّه الحب؟
- وبم يسرح الشباب؟ لا همّ لنا سوى البنات..
- وكيف عرفت أولاً أنّني سارح؟
- أراك تُمسّد أطراف شاربيك وتحدّق بالماء الجاري..
- ها هو علي يقوم بمداعبة أطراف شاربيه ويسرح أيضـاً..

يقوم محمد بنهر علي ويدفعه بيده قائلاً:

- وأنت أين تسرح؟ أين وصلت يا علي؟
- آآآآآآه.. أنـا هنـا بيـنكم.. فقـط عقلـي هـو الغائـب الوحيـد يـا أصدقائي..
- وأين يغيب عقلك أيها العاشق المتيّم؟
- ليس المسؤول بأعلم من السّائل..
- ما أعرفه أنّك عاشق رانية..
- وهل هناك غيرها أيها المهبول.. هي الروح.. هي العقل.. هـي العالم.. هي كلّ شيء.. لن أشغل تفكيري بغيرها..

قلت له: أعانك الله يا صديقي المتيّم.. أنت قيس زمانك..

- بل أنا علي زماني وهي رانية زمانها..
- أوتداعب شاربيك لتفكّر بها؟

- نعم.. نعم.. أحسّها بين شعرات شاربيّ..
أعشقها وتعشقني.. ويعشق شارباي شفتاها..

سأله محمود: وهل تشفي غليلك قبلة من فيها؟

- النار تُسكنها المياه.. والعشق يُسكنه رضاب فيها..

قال خالد: أنت متيّم مجنون.. سنكنّيك بمجنون رانية..

- لا بأس.. وأنت غافل ومحروم.. دعوني وجنوني.. العشق بلا وِصال كسراب في الصحراء يحسبه الظمآن ماء..

سأل محمد: وما يمنعك من الوصال؟ تزوج بها؟

- أتمنى ذلك اليوم قبل الغد..

علقتُ قائلاً: أشفق عليك أيّها المحروم..

- دعني وحرماني.. فلا عشق بلا وِصال.. ولا حبّ بلا منال.. ولا سعادة لحالم.. ولا هناء لواهم.. سأحلم بلا توقّف حتّى يتحقّق حلمي ويلتئم شملي.. وأعيش مع منْ أحببت.. ومن بها جننت.. فدعوني وأحلامي.. لا مكان أجمل من هذا المكان لأنثر فيه أحلامي!

البـــــــئْر

تستمرّ المواكبة لموضات الألبسة وحلاقة الشعر.. كدْتُ أنْ أنسى **فلِبْسْ** وصالونه.. تساؤلاتي حول تسميته ومن يحلق له لا تموت في فكري.. كلّما مررت بجوار صالونه أتذكّر هذين السؤالين.. أصبحت في حيْرة من أمري.. لِمَ تشغلني هذه الأسئلة البسيطة؟ الأجوبة ليست معضلة لهذه الدرجة.. لا عيب ولا حرَج بها.. أعتقد أنّ تفاهتها هي ما يمنعني من السؤال عنها.. ربّما سيهزأ بي من أسأله مثل هذا السؤال.

ذات يوم حالفني الحظّ.. كانت هناك مجموعة من الشباب يجلسون بمنطقة البطاقة المقابلة لصالون **فلِبْسْ**.. سأل أحدهم عن سبب تسميته بهذا الاسم.. شدّ انتباهي.. ركّزتُ بكلّ حواسي على من سيجيب.. لقد جاءتني فرصة ربّما لن تتكرّر لمعرفة الإجابة، وأكون قد حللت نسبة 50٪ من تساؤلاتي.. نصف الإجابة أفضل من لا شيء.

نظر إليه أحدهم باستهزاء.. بدأت فرائسي ترتعد.. تخيّلتُ نفسي مكان ذاك الشاب وكيف سيهزؤون بي.. أحسست بأنّني سأنفجر في ذاك المتعجرف.. هل سيجيب عن مسألة عجز عنها الناس؟ هل

يملك علماً لا نعرفه؟ السؤال تافه.. الجواب سيكون أتفه بلا أدنى شكّ.. لكن، للتّفاهة حاجتها أحياناً.. هممت بلكمه على وجهه حتّى لا ينطق بالجواب الذي أحسسته يصغّر من هذا الشاب المسكين.. راودتني نفسي أنْ أدفن كلماته في جوفه فلا يتفوّه بها.. لكنّ القدر كان أسرع من كلّ تخيّلاتي.. لقد أوقف إرباكي حين قال:

- يا مسكين.. هذا السّؤال لا يحتاج ذكاءً ولا نباهة.. لو انتبهت لصالونه لوجدت أنّ جميع معدّاته هي ماركة فيليبس الألمانيّة الشهيرة (*PHILIPS*).. المقصّ، ماكنة الحلاقة، الراديو، التلفاز، وكلّ معدّاته من نفس الماركة.. ألا تراه يتفاخر حين يهمس في أذن الزّبون الجالس على كرسي الحلاقة بأنّ ماركة معدّاته عالميّة ومشهورة.. هو يردّد كلمة فيليبس (*PHILIPS*) عدّة مرّات خلال الحلاقة.. لهذا لقّبه من يكبروننا بهذا الاسم.

شعرت بارتياح كبير وتنفّستُ الصعداء.. لقد أزال من صدري نصف ما أختزنه.. حمدتُ الله أنّني لمْ أكن السائل وإلّا لكنت قد تشاجرتُ مع ذاك المتعجرف.. لكن.. هل إجابته أشفت غليلي؟ هل أقنعتني إجابته فاكتفيت بما قال؟ إجابة ربّما تكون أقنعت الجميع إلّاي! لا أقبل بالأمور مُسلَّماً بها هكذا.. أحسبني لمْ تقنعني كلماته.. وهل كلّ من يستخدم آلة يُكنّى بصناعتها؟ الأيّام ستُثبت حقيقة هذا

الأمر.. رغم تفاهته، إلّا أنّه أشغلني.. ضحكت بنفسي على نفسي وانسحبت بحيْرتي أجرّها معي دون أنْ تُريحني.

أستذكر تلك الفتاة التي حين مررت بها وصديقتها في الشارع.. كلماتها ترنّ في أذني.. حديثها عن الشوارب ونعومتها يجعلني أمدُّ يدي لأداعب أطرافها مستمتعا وسعيداً.. لله درّها.. لقد أثّرت بي إيجابًا.. ربّما لو أنّني لمْ أسمعها لما اهتديت إلى هذه الحركة التي تحلو لي وتسرّني.

أحسستُ بأنّ رجولتي قد اكتملت في ذاك اليوم.. قرّرتُ الخروج والذهاب إلى منطقة السكّة لأخلو بنفسي قليلاً وأشاركها سعادتي في هذه اللّحظات التي قرّرت أنْ أعيشها كما أرى.

وادي الزّومر الذي يُطاول الشارع الممتد بين مدينة نابلس والبحر الأبيض المتوسط، يتعرّج متمايلاً مزهوّاً بنفسه.. كيف لا وهو يتبختر بين آلاف الدونمات المستلقية على جنباته لتُكمل باخضرارها لوحة يعجز بيكاسو عن رسم ما يشبهها.. يجود بمياه نسبح فيها رغم عدم صلاحيّتها.

هناك منطقة قريبة من المخيّم، تنحدر بشكل رأسيٍّ لتسقط منها المياه بشكل شلّال صغير.. أسميناها منطقة الشلّال.. تطفو الرّغوة على سطح مياهه بسبب ما تحمله منْ أوساخ وشوائب وبقايا مصنع

الصابون النابلسيّ.. يتجمّل ذاك الوادي بانسيابه في أحضان السّهل الممتد باخضراره وبهائه طيلة أيّام السنة.. محروساً بجبل الأحراش المُتمايل سحراً ودلالاً بأشجاره الباسقة مع كلّ نسمة عليلة تُنْعش الأجواء من حولها.. غابات أشجار الصنوبر تتماهى بكبرياء وعزّة تطوّقها أشجار الكينا والسرو.. لوحة لا تكتمل إلّا بحاضرة بيّارة الحمضيّات التي تشكّل لوحة تتوسطها سكة حديد الحجاز التي تنطلق من حيفا مُخترقة نورشمس ومُحاذية للشارع الرئيسي.. يأبى وادي الزّومر إلّا أنْ يُثبت وجوده في وسط هذه اللّوحة الأخّاذة، فتراه يشقّ عباب البيّارة ينعشها حتى نهايتها.. يستمرّ بجريانه تاركاً خلفه البيّارة تحتضن برتقالها، ليمونها، كلمنتينها، خُشخاشها، يوسفها الأفندي، وغيرها.. يتعرّج بمساره يميناً ويساراً وكأنّه يُنوّع ويُشكّل الطبيعة لإكمال جماليّاتها وسحرها.

بدأتُ أتمشّى مزهوّاً بنفسي.. هو شعور الرّجولة الأول.. التقيتُ بصديقي إبراهيم.. صافحته بحرارة أشدّ على يده كما الرّجال.. بدأنا بتبادل أطراف الحديث الذي لم يكتمل بأيٍّ من المواضيع.. أشرت عليه بأن ندخل البيّارة لتناول بعض الحمضيّات.. لمْ يتردّد بالموافقة.. دخلنا البيّارة.. أمتار قليلة خطوناها ونحن نقطف ما لذّ وطاب لنا من حمضيّاتها.. وصلنا إلى البئر العميقة المنغرزة بين

الأشجار.. تلك البئر كما السّكة، قام بإنشائها الإنجليز على شكل بناء دائريّ الشكل.. ينزل بشكل عموديّ لأكثر من ثلاثين متراً.. قاموا بعمل طواقي بعمق قصير (فتحات صغيرة) في محيطها الذي يتسّع وكأنّه مسرح دائريّ منتظم ومتناسق بشكله الهندسيّ.. حرصوا على تعليق سلّم حديديّ متين على جداره الدّاخلي يصل إلى ما قبل قعره بثلاثة أمتار تمّ قطعها من أصل طول السلّم الذي استعملوه لتنظيف قعر البئر.. لا أدري من قام بقطع تلك الأمتار الثلاثة.

كما يَروي الشباب الذين يكبروننا وقاموا بالنّزول إلى قعر البئر، فإنّ البئر كانت تخلو من الماء إلّا القليل جدا في قعره.. أمّا الطّواقي (الفتحات)، فقد أغلق الجزء الأكبر من أكثرها مع تقادم الزّمن وقيام الحمام البرّي والعصافير ببناء أعشاشها في تلك الطّواقي وغياب الصّيانة عنها.. لذا أصبحت مسكنًا للطيور والأفاعي.

أحببت أن أبدأ تلك المرحلة العمريّة الجديدة بالنّزول إلى قعر البئر.. صديقي إبراهيم الذي كنت أحدّثه وشعره الطويل يتطاير مع نسمات الهواء فيغطّي على عينيه، إبراهيم صاحب الشعر المجعّد والخشن قام بكيّ شعره في الصالون.. يضعون جهازاً حراريّـًا على رأس الزّبون لساعة أو أكثر.. يتمّ سحب الشعر ليُصبع انسيابيّـًا ناعمًا كذيل الفرس.. يدوم هذا الانسياب وتلك النّعومة لستة أشهر، يعود

بعدها الشعر كما كان قبل سحبه.. وافقني صديقي على الفكرة والمغامرة التي سنقوم بها معًا.. اشترط عليّ أنْ أنزل قبله على أنْ يتبعني مباشرة ونكون قريبين من بعضنا.

كلانا أحبّ تلك المغامرة التي كنّا نسمع عنها ولا نجرؤ على تجربتها.

ما إن انتصف نزولنا للسلّم المتين، حتى بدأت روائح العفن والنتانة باختراق أنفي.. لمْ أعرف السّبب الحقيقيّ لتلك الرّوائح، إلّا حين اكتمل نزولنا ووصولنا لآخر درجة موجودة بالسلّم.. لا أخفيكم أنّ دقّات قلبي بدأت تتسارع.. الخوف سكنني كشيطان مارد..

يسري الخوف بين أضلعي.. أعصابي ترتبك وتهتز.. كدْت أسقط وتنفلت يداي من السلّم أكثر من مرّة.. أمدُّ يدي المرتعدة في الطّواقي بحثًا عن فراخ العصافير.. أحذر بشدّة خوفًا من أن تكون هناك أفعى تنتظر متطفّلاً مثلي.. تأتيها فريستها إلى وكرها دون عناء أو تعب.. ذاك هو الرّعب الحقيقيّ مقرونًا بغباء وتهوّر الشباب.

يا ويلي! لقد خطر ببالي سيدنا يوسف عليه السلام والجب.. أيُعقل بأنّه لمْ يَخَفْ؟ هل كان الأمر هيّنًا عليه في وحدته تلك؟ هل

ساوره أمرٌ ما من الخوف والرّعب؟ أمْ أنّ الأنبياء عُصِموا عن الخوف؟ ألمْ يكونوا بشراً مثلنا؟ أنا لست نبيّاً.. أنا لست يوسف!

بدأت العتمة تسدل ستائرها السوداء كلّما اقتربنا من القعر.. لولا أنّ فتحة فُوّهة البئر متّسعة وبلا سقف، لَما استطعنا الاستمرار في النزول.. وصلنا إلى الدّرجة الأخيرة التي تعلو عن القعر بحوالي ثلاثة أمتار.. استطعنا أنْ نتبيّن وجود القليل من الماء وبعض الأفاعي بأحجام وأطوال مختلفة.. تسبح وكأنّها تلهو في بركة خصّصت لأجلها.. تعتاش على العدد الكبير من فراخ العصافير وزغاليل الحمام التي لا تستطيع الطيران أو التي تبدأ بالحركة بعد التفقيس فتسقط، بل تهوي لمستقرٍّ لها في قعر البئر لتصبح طعاماً مستساغاً لتلك الأفاعي.. تستقبلها وتبتلعها بنهم شديد.

تملّكني الرُّعب حين شاهدت زغلولاً يُصارع الموت بين فكّيْ أفعى وهي تبتلعه على مهل.. ضمنَت أن لا مفرّ له منها.. إنّه وجبتها التي لا تنتظرها.. خطر ببالي عندما أبتلع حبّة دواء صغيرة.. أبتلعها بلا معاناة كما تبتلع تلك الأفعى ذاك الزّغلول الضحيّة.. شعر رأسي ينتصب خوفاً من هول المنظر.. لا بل أظنّ أنّ الشعر في جميع أنحاء جسمي كاد أن يبرز خارج ملابسي، فهو أيضاً ينتصب من شدّة الخوف.

تخيّلت تلك الأفاعي وهي تُهاجمني من كلّ حدْبٍ وصوب.. أتلوّى بينها محاولاً النجاة.. أحاول وصول السلّم فلا أستطيع.. تبدأ كلّ واحدة منهنّ بنهشي وابتلاع ما يروق لها منْ أعضائي.. هل كانت هذه أحلام اليقظة؟ أم تهيؤات بسبب الخوف الشديد؟ أم أنّ الخوف أوصلني للجنون؟!

صُراخ لمْ أعهده من فبل.. خرج من حنجرتي مخنوقـًا.. قلتُ له وكدتُ أنْ أبكي..:

اصعد بسرعة.. سأقع وأموت.. ستبتلعني الأفاعي.. هيّا.. هيّا..

تمنّيت أن تحملني إحدى الحمامات البريّة أو أحد العصافير على جناحيه لأنجو من السقوط.. ليحلّق بي عاليـًا إلى أرض الأمان بين أشجار الكلمنتينا والبرتقال.. بعيداً عن تلك الأفاعي التي تتموّج بحركاتها مسرورة وكأنّها تتوقعنا وليمة لها.

بينما الدّمعة تموج في عينيّ، والصوت يختنق في صدري، صرخت بصاحبي:

- هيّا.. إصعد بسرعة..
- لقد أرعبتني بصراخك.. تريّث يا صديقي..
- أتعرف ما يُرعب أكثر من الموت نفسه؟
- وما هو أيّها الجبان؟

- المُرعب هو أنْ تعرف طريقة موتك ووقتها.. أن تتصوّر ما سيجري لك بعد الوفاة، خاصة إذا كان المشهد كالذي نراه..
- ما بك أيّها المهبول؟ إنّك ترعبني بأفكارك!

أحببتُه بصوت أجشّ مخنوق: أنْ تأكلني الديدان بعد موتي وفي قبري، فهذه سنّة الموت.. أمّا أن تلتهمني هذه الأفاعي المرعبة وتبتلع أعضائي، فهذا ما لا أستطيع تصوُّره أو حتّى التفكير فيه.. هيّا اصعد بسرعة أكبر وإلّا تجاوزتك لأنجو بروحي وجسدي!

القـــــمل

بعدما خرجنا أنا وإبراهيم من تلك البئر الملعونة، بالكاد كنّا نستطيع التقاط أنفاسنا.. نظر إليّ إبراهيم وبدأ يضحك بشكل هستيريّ.. وقفت أحدّق فيه باستغراب وبلاهة.. أسأله عن سرّ هذا التحوّل المفاجئ فلا يجيب.. فقط يضحك ويشير إلى رأسي.. ازداد حنقي وغيظي.. صرخت به كالمجنون وقلت له بأنّ الموت بين الأفاعي أرحم ممّا يفعله.. بعدما رأى حالتي، تماسك قليلاً وقال:

إبراهيم: أنظر إلى نفسك.. أنظر إلى شعرك!

أنا: وكيف أرى نفسي أيّها المأفون؟ أتعتقد بأنّ وجهك مرآة؟

إبراهيم: النيجرو الذي تعتز به، يمتلئ بفضلات الحمام والعصافير، وكذلك قشّ الأعشاش والأتربة..

أنا: مؤكدٌ ما تقوله؟ هذا ما كنتَ تُسقطه أنت فوق رأسي..

انحنيتُ وبدأت أنفض ما علق بشعري.. أحرّك يداي جيئة وذهاباً وما علق بشعري النيجرو يتساقط.. أمسح ما تكدّس على رموشي وحاجبيّ.. رفعت رأسي ناظراً إليه.. لم أجد على شعره شيئاً يسوؤه.. هزّ برأسه فتلاعبت خصلات شعره المسترسلة.. عاد وكأنّه لم يكن يرافقني في نزولي للبئر.. لقد أفاده سحب شعره وإلّا

لكان مثلي أو أكثر.. ازداد حنقي غيْرة ممّا أرى.. طلبتُ منه أنْ نُغادر البيّارة ونعود لبيوتنا.

كان عليّ في اليوم التالي أنْ أذهب لصالون الأمراء لحلاقة شعري.. جلستُ على كرسي الحلاقة.. نظرت إلى شعري الكثيف.. طلبت من الحلّاق أن يستخدم مِقصّ التّشفير للتخفيف من كثافة الشّعر.. قام بتخليل أصابعه بين شعري وهو ينظر إليّ بالمرآة.. قال بأنّه لن يستطيع استخدام مقصّ التّشفير والتّقليل من كثافة الشّعر إلّا إذا ألغيتُ تسريحة النيجرو، فهي لا تصلح للشعر الخفيف.. رفضت تغيير القصّة وطالبته بأن أبقى كما أنا.. لقد اعتدتُ قصّة النيجرو وباتت تروقني كثيراً.

لا أخفيكم سرّاً، في تلك الفترة كان القمل ينتشر بين الناس بشكل كبير وملحوظ.. يتسارع بالانتشار كما النّار في الهشيم.. عجزت المدارس والأهالي عن السّيطرة عليه.. مدارس البنات أصبحت بؤرة للقمل.. تفشّى بين جميع أفراد الأسرة الواحدة.. حاولت والدتي بداية تنظيف رؤوس أخواتي الصغيرات .. لمْ أحتمل أن أمشي بين أصدقائي وأنا أهْرُشُ (أحكُّ) رأسي.. بات أغلب الناس يهْرشون رؤوسهم بلا خجل.. ذهبت لأمّي.. طلبت منها أن تُفَلّيني (تُفتّش بين شعري على القمل والسيبان).. استلقيت أمامها.. وضعت رأسي في

حجرها.. بدأت تُفتّش بأصابعها التي خلّلتها في شعري فأحست بأنّني بعالم آخر.. تتناول قملة أو سيبانة، ثمّ تقوم بقصعها (تضعها بين ظفريْ إبهاميها ثمّ تسحقها فيُسمعُ صوت سحقها).. لا يمكن أن تُسْحق القملة إلّا بالقصع لأنّ جسمها يتشابه في تكوينه بالنّمل، والدليل ما قالته نملة لأخواتها في القرآن الكريم:

﴿لا يحطمنّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾.. كلاهما ينتمي إلى نفس الفصيلة.. أسمع الحنونة تقول:

«يا ويلي يمّة.. والله راسك مليان قمل وسيبان».. أمّا السّيبان فهو مرحلة ما بعد البيض.. عندما يفقس البيض، يخرج منه السّيبان الذي يلتصق بجلدة الرّأس.. ينمو ويكبر فيصبح قملاً يمتصّ الدّماء كيْ يتغذّى عليها.. هنا يبدأ الشّخص بالهرش والحكّ.. عندما ينتشر القمل بشكل كبير، يقوم الشّخص بالهرش بكلتا يديه لدرجة أنْ يقوم بجرح جلدة رأسه فينتقل إليه المرض، عاديك عن قلّة النوم.

تعبت أمّي منْ كثرة القمل في رؤوسنا.. طلبتْ منّي أنْ أقوم بإحضار الكاز لدهن شعرنا علّه يقضي على القمل والسيبان.. بالفعل، تساقط الكثير من القمل الميت والقليل من السّيبان.. بعد يومين أحضرنا مبيداً حشريّاً سامّاً اسمه (فليت).. قام أيضاً بقتل القليل ولم يقض عليهما.

اضطُرّ الكثير من الناس لحلاقة شعرهم على الصفر أو الشّفرة.. بعض الناس قاموا بتقصير شعر بناتهم بدرجة كبيرة.. آخرون قاموا بالحلاقة للبنات على الصّفر كما الأولاد.. أصبحنا نرى أشكالاً مضحكة وخاصة بين البنات اللواتي لمْ يعتدْن حلاقة الماكينة.. أخريات من الطفلات قمن بالتّحجّب.. المضحك بالأمر أنّ حلاقة الصّفر والماكينة، تُظهر أشكال وعيوب الرؤوس من إصابات وغيرها كأماكن إصابات وجروح تركت أثراً.

قرّرت أن أبحث عن كتب تتحدّث عن القمل.. استطعت أنْ أصل لكتاب يفصّل كلّ شيء عنه.. فالقمل أنواع عدّة.. قمل الرأس، قمل الجسم، ذكر قملة الرّأس، وقمل العانة أو قمل الحب كما يسمّيه الفرنسيون.. فهو ينتشر بين الرّموش والأهداب.. يتحرّك ببطء حتى يصل إلى العانة.. ينتقل عن طريق الجِماع بين الأزواج.. أمّا باقي الأنواع فتنتقل عن طريق المخالطة والملامسة، استخدام ملابس الآخرين والتطاير مع الهواء.. في المحصّلة فإنّ القمل ينقل مرض التيفوس الوبائي.. وإن الحلاقة تشفي بنسبة تصل إلى التسعين بالمائة وباقي العلاج يكمن بالدّواء.

ذات مساء، ذهبتُ إلى منطقة البطاقة التي غالبًا ما يتجمّع فيها الشّباب.. بينما كنّا نقف نكيل النّكات عن البعوض والقمل، وإذا

بصوت **فلِبْسْ** يرتفع بالصراخ والشّتائم.. ولدٌ بالعاشرة محلوقٌ جزء منْ شعره الخلفيّ يصيح والملاية ما زالت مربوطة حول عنقه.. تجمّع الكثير من الصّبية والشّباب.. توقّف بعض المارّة من الكبار وبدؤوا يحاولون تهدئة الأمور.. تبين لنا مِنْ رواياتهم بأنّ رأس الولد ينغل (يمتلئ) قملاً.. عندما لاحظ ذلك **فلِبْسْ** رفض أن يُكمل له الحلاقة خوفاً من نقل العدوى لباقي الزّبائن.. وبعد حوار طويل وأخذٍ وردْ، اتّفق بعض الكبار معهما أنْ يُكمل له الحلاقة لأنّ والده لا يمتلك ماكينة في بيته.

بعض الشّباب أفاد بأنّ **فلِبْسْ** يُعلِّق يافطة تُفيد بمنع الحلاقة لمن برأسه قمل.. البعض الآخر أيّد أنْ لا يذهب أيّ مصاب إلى الصالون.

في بداية الأمر اعتقدت بأنّ نزولي في البئر هو ما جلب لي القمل.. أخبرت والدتي بذلك.. نَفَتْ هذا الأمر وأعلمتني بأنّ الطّيور تنقل الفشّ وليس القمل.. أصبح من الأهميّة أن أتّخذ قراري بالعلاج والخلاص من هذه المصيبة.. قراري بالحلاقة على الصّفر يحتاج شجاعة فائقة.. كيف لشابّ يتباهى بشعره أن يقوم بحلاقته والعودة إلى الصّفر وفترة الطفولة؟ صراع بين نفسي وبين الواقع.. أخيراً اتّخذت قراري الصّعب بالحلاقة على القرعة كما يقولون.

الحيْرة ازدادت بعد اتّخاذي للقرار.. هل سأذهب إلى صالون الأمراء وأفضح نفسي بالمدينة؟ هل سأعود إلى **فلِبْسْ**؟ هل أذهب لأبي العبد؟ بكلّ الحالات الكلّ سيرفضني.. حتّى لو استقبلني أحدهم فستكون هناك مشكلة وربّما مشاجرة.. لا خيار أمامي إلّا الحلاقة في المنزل.. الماكينة القديمة كُسِرَتْ منذ زمن بعيد ولم نقم بشراء واحدة أخرى.. الحل الوحيد هو أن أقوم بالحلاقة على الموس أو الشّفرة.

تودّدْتُ لأخي حكمت الذي يكبرني بعام لأن يقوم بالحلاقة لي.. بعد عناء طويل، وافق على أن لا أفتح فمي بأيّ كلمة بعد الحلاقة لأنّه لا يُتقنُها.. وافقت مُرغمًا.. ذهبت إلى أبي العطا.. اشتريت منه شفرة ناسيت الحادّة الحدّيْن.. أحضرت ماكينتي الحديديّة القديمة التي تتألّف من قاعدة يقلّ عرضها عن عرض الشّفرة بقليل.. بوسطها ثلاثة نتوءات معدنيّة أوسطها مسنّن لتركَّبَ عليه يد الماكينة بشدّ المسنّنات بداخل اليد القصيرة.

طلب منّي حكمت أنْ أقوم بغسل شعري بالماء والصابون ثمّ أقوم بسنّ الصابون على شعري وإبقائه ليعمل كمعجون الحلاقة الذي نستخدمه بحلاقة الذّقن.. أجلسني على كرسيّ صغير من القشّ.. بدأ عمله متباهيًا بنفسه وكأنّه حلّاق محترف.. يؤلمني حينًا

فأصرخ.. طلبت منه مرآة لأرى ما يصنع.. رفض بشدّة مهدّداً بتركي.. رضخت مُرغمًا.. أسأله إنْ كان قد جرحني فينفي بشدّة.. معاناة أمرّ من معاناة القمل.

أخبرني بأنّه أنهى الحلاقة.. ألقى بآلة الحلاقة على طربيزة قريبة منّي.. أمرني بأنْ أقوم بالتنظيف وإعادة الترتيب.. بلحظات رأيته يتسلّل خارج البيت وكأنّه يهرب من شيء يخشاه.. لم يكدْ يصل إلى الباب الرئيسيّ حتى انطلق كسهم يتسارع للوصول إلى صدر محارب لا يرتدي درعه.. شككت بأنّ خروجه هذا يُخفي خلفه سرّاً حول الحلاقة.. أسرعت بلهفة أبحث عن المرآة الدائريّة الصغيرة.. التقطتها بكلتا يديّ لأنظر فيها.. كانت مقلوبة على صورة وردة خلفها.. أسرعت أقلبها بوجل من المفاجأة التي تنتظرني.. نظرت في المرآة التي أذهلتني بما عكست.. رأسي يقطر دمًا وكأنّه لوحة لفنان رسمها ليعبّر عن سخطه من أمرٍ ما.. جروح صغيرة وعديدة تنتشر على صلعتي.. صرخت ألعنه وأشتمه مهدّداً بأنّني سألقّنه درسًا لن ينساه.. أسرعت أغسله بالماء والصابون لأزيل الدماء التي ظهرت كخطوط قصيرة ونقاط حمراء صغيرة تنتشر في رأسي هنا وهناك.. عُدْت أنظر بالمرآة لأجد آثار الجروح بادية واضحة كخيوط الفجر.. ألقيت بالمرآة على الأرض.. هشّمتها لأفرغ شيئًا من غضبي.. عدْت

أدهن رأسي بقليل من زيت الزيتون علّ لمعته تُخفي آثار الجروح ولو قليلاً.

جلست في غرفتي أندب حظّي ندمًا على عدم ذهابي إلى **فلِبْسْ**.. لو أنّني صارحته بحقيقة الأمر وطلبت منه أن يحلق لي على الموسى، لما تردّد بذلك ولكانت صلعتي تلمع من غير سوء.. هو قدري مع القمل.. عليّ أن أحتمل نتائج الخلاص منه.

في وحدتي بغرفتي، عادت تلك الأسئلة تتردّد في رأسي.. استذكرت أولئك الشباب الذين قالوا بأنّ معدّات (*PHILIPS*) هي سبب تسميته **بفلِبْسْ**.. وصلت لقناعتي الخاصّة بأنّ هذا السبب غير مقنع لي على أقلّ تقدير.. أظنّ أنّ كثرة ثرثرته وعدم سكوته هي كثرة الراديو الذي لا يسكت عنده أبداً.. فهو وجهازه متشابهان باستمراريّة الكلام، ولهذا السّبب تمّت تسميته على ماركة الراديو نفسها.. ولكنّ حدسي غير مؤكّد كما أنّ معلومة الشباب تحتاج إلى تأكيد.. أمّا من يحلق للحلّاق؟ فهو سؤال بقي يرافقني بل ينزرع في رأسي بلا إجابة.

أنهيت المرحلة الثانويّة وكان شكلي كالهبيّين.. شعري طال كثيراً وبشرتي ابيضّتْ قليلاً بسبب مكوثي الطويل داخل البيت بعيداً عن الشمس.. ذهبت إلى صالون الأمراء بآخر زيارة للحلاقة قبل سفري

للدراسة بالأردن.. أمّا سؤالي عمّن يحلق لذاك الحلّاق، فقد توسّع أكثر فأكثر وأصبح:

مَنْ يحلق للحلّاقين!

الولد الثـــرثار

بعد صدور نتائج التوجيهي وسفري إلى الأردن، دخلت بمرحلة جديدة وبلد جديد.. سيكون عليّ البحث عن حلّاق أرتاح له ويناسبني.. المغامرة بالحلاقة في أيّ صالون ربّما تكلّفني تعبا نفسيا سيخيفني من أيّ حلّاق إذا لمْ يعجبني مَنْ سأحلق عنده.

كان لا بدّ لي أنْ أنتظر لشهر أو أكثر لأزور حلّاقًا جديداً في الرصيفة.. اعتقدتُ بأنّني أواكب الحضارة بالنيجرو.. وجدتُ أنّ الشباب في الأردن يتسابقون لعمل أحدث القصّات العالمية.. تقليد لقصّات لاعبي الرياضة، السياسيين، الفنانين، رجال الأعمال، وغيرهم من المشهورين.

اقترب موعد حلاقتي.. رافقت أحد أقربائي للصّالون الذي يحلق به.. استأتُ من ثرثرة حلّاقه الذي يُكثر من الثرثرة التي تدلّ على سذاجته وجهله.. أصبحتُ في حيْرة منْ أمري.. أين سأقصّ شعري؟ أيّ صالون سأرتاح بالحلاقة عنده؟ هل سأجد الحلّاق الذي يريحني ويسعدني؟ أسئلة كثيرة ومقلقة بدأت تغزو فكري فأربكتني..

في اليـوم التـالي، قـرّرتُ أنْ أقـوم بزيـارة لنسـيبي في عوجـان.. شرحت له أمر حيْرتي بوجود حلّاق يناسبني.. طلب منّي أنْ أرافقه في الحال إلى الزرقاء لنحلق كلانا..

صالون أجمل من الصالونات بفلسطين.. حلّاق أربعينيّ مكتنز قليلاً.. مليح الوجه.. قصّة شعره جميلة بلمعة أعطته إياها تلك الكريمات التي يرتبها على رفّ مجاور للمرآة الأماميّة.. معدّاته أكثرها يخفيها داخل دروج معلّقة بالرّف الأماميّ.. لا كاز ولا غيره.. يرتّب معاجين الحلاقة المتنوّعة وبعض أنواع الكولونيا أمام الزّبون.. قليل الكلام والحركة.. لا يخلو من حركات أحسبه يسرقها ليريح نفسه والزّبون.. بدأ بالحلاقة لنسيبي فلمست أنّ علاقة حميمة تربطهما.. لم يطُل سرّ تلك العلاقة والاهتمام طويلاً كيْ ينكشف لي ما أجهله.. بعد الانتهاء من حلاقته، نقده خمسة من الدنانير.. أمّا أنا، فأعطيته ديناراً ونصف الدينار.. كنت قد سألت أصدقائي في الرصيفة عن أجرة الحلاقة، فعرفت كم كان عليّ أنْ أدفع.

استأت كثيراً من تصرّف نسيبي وعاتبته على تصرّفه هذا.. لـمْ يُبدِ اهتمامًا بالأمر وأخبرني بأنّه اعتاد على أن يدفع له هذه القيمة على أنْ يقوم بإتقان عمله.. أثار غضبي فصرخت بوجهه قائلاً له بأنّ حلاقته لم تُعجبني، وأنّه هو أيضًا لم يعجبني.. أقسمت أن لا أعود له أبداً..

سرنا خارجين نتوجّه إلى كراج الباصات.. بعد مسافة ليست بعيدة عن ذاك الصّالون، رأيتُ صالونًا آخر يعمل به ثلاثة.. رجل خمسينيّ يحلق لمسنٍّ.. شابٌّ عشرينيّ يحلق لولد ربّما يكون بالعاشرة أو حولها.. وولد أقدّر بأنّه ربّما يكون قد وصل الخامسة عشرة من عمره يحلق لشابّ عشرينيّ.. وقفت أمام الصالون بواجهته الزجاجيّة للحظات أنظر لثلاثتهم.. لفت انتباهي خفّة يدْ وحركة الولد الحلّاق.. سرعة عمله وحركته الدؤوبة أبهراني.. قرّرت بيني وبين نفسي أنْ أزوره في المرّة القادمة.

ما لفت انتباهي أنّ الحلّاقين الثلاثة، يحلقون بقصّات تختلف عن بعضها.. سألت نسيبي:

- لِمَ لا تأتي لهذا الحلّاق؟
- ألم ترَ بأنّني أحلق لدى حلّاق ماهر؟
- لا أظنّه ماهراً.. كما أنّه يسرقك بأجره!
- لا تظلمه يا رجل.. هو لا يطلب شيئًا.. أنا أعطيه خمسة دنانير من ذاتي..
- إذن، فأنت العلّة.. حرام عليك.. هذا المال، ألا تتعب بجنيه؟
- منذ ما ينوف على العام وأنا أحلق عنده وأنقده تلك الدنانير الخمسة..

- اتّق الله واحفظ مالك.. أعتقد بأنّ الدينار والنصف لقصّ الشعر وحلاقة الذّقن، كافية وزيادة..
- يا سيّدي.. كلّ واحد ينام على الجنب الذي يريحه!

بعد تلك الإجابة، قرّرت أن أصمت ولا أزيد بالحديث معه.. أمّا ذاك الولد، فقد عشعش في دماغي.. تمنّيت لو رأيته قبل أن أحلق.. عندها لن أقوم بالذهاب لغيره.. ولد مليح الوجه.. يتنقّل بحركاته كعصفور الحبّ بألوانه الجميلة.. أحسبني لن أنتظر طويلاً حتّى أقوم بزيارته.

خلال تردّدي على عمّان من أجل الدراسة، لفت انتباهي الاهتمام الكبير الذي يوليه الشباب والصبايا لشعرهم.. أكثر البنات تتحجب.. القليل منهن يسفرن بشعورهن.. رغم أنّ الحجاب يُكمل زينة البنت العربيّة، إلّا أنّ بعضهن ترى زينتها في شعرها.. المرأة المتواضعة الجمال، يجمّلها شعرها.. لا قبيحة بين النساء.. كلّهنّ جميلات.. تاج جمال المرأة هو شعرها.. ولكن، لا أنثى تصل بجمالها حدّ الحور العين.

الآباء والأمّهات يحمون شعر بناتهم من القصّ أو التلف.. يُعطون اهتمامًا بالغًا بحفظ تاج جمالهن ليوم زفافهنّ وارتباطهنّ.

تغيّرت اليوم رغبات البنات بقصّ شعرهنّ، وهذا يخالف اعتقاد الأهل ووعيهم للحفاظ على جمال البنات والنساء.. يتوّج الشعر الطويل للأنثى فتتباهى به وتتفاخر على أقرانها بطوله وجماله.

اهتمامات الشباب بقصّاتهم المختلفة، جعلني بحيْرة لاختيار قصّة تناسبني.. النيجرو بات قديماً.. تسارع في الموضات والتقليد.. ولكن، تبقى الإفرنجي هي القصّة الصالحة لكلّ زمان ومكان.. فكّرت مليّاً في هذا الموضوع ولم أصل لقرار يقنعني بقصّة معيّنة.

أسابيع ثلاثة مرّت عليّ منذ الحلاقة المشؤومة تلك.. مساء يوم الخميس، وبعد عودتي من الكليّة، قرّرت أن أعود مباشرة إلى الزرقاء وليس إلى سكني بالرصيفة.. سارعت بالذهاب إلى صالون الولد (صالون الشّباب).. هناك، وجدت ثلاثة من الشباب يجلسون على كنب من الجلد الأسود.. أمامهم طربيزة عليها عدد مختلف من المجلّات.. جلست بجوار أحدهم أنتظر دوري.. أمسكت بمجلّة العربي التي كانت تصدر من الكويت آنذاك.. تلك المجلّة التي لا أملّ من قراءتها.. تتنوع مواضيعها ومحتوياتها ليجد كلّ قارئ بها ما يعجبه ويستهويه.. عرفت خلال جلوسي بأنّ الثلاثة حلاقون؛ كانوا أباً وابنيه.. انتهى الحلّاق الشاب من زبونه.. دعى من يجاورني إلى الكرسي.. رفض معلناً بأنّه يريد أن يحلق له وسيم، وأشار للولد..

نظر إليّ وهو يرتّب الملاية بين يديه.. نظرت إليه.. أشرت لذاك الولد.. قام بوضع الملاية في أحد الجوارير وخرج إلى الخارج.. أشعل سيجارة وبدأ ينفث دخانها باستجمام أو ربّما غضبا منّا.

مللتُ وأنا أتصفّح ذاك العدد من مجلّة العربي لأنّه موجود لديّ وكنت قد قرأته في فلسطين.. قرّرت أنْ أراقب ذاك الوسيم.. مهارته في العمل تُعرف من خلال حركاته ورشاقته.. جاء دوري فطلب منّي أن أجلس على كرسي الحلاقة قائلاً:

- تفضل يا صديقي..
- أشكرك أيّها الجميل..

وقام بربط الملاية حول عنقي

- أهلاً وسهلاً.. أعتقد بأنّك تزورنا لأول مرّة.. وبدأ يخلّل أنامله بين شعري..
- نعم صحيح.. قدمتُ حديثاً من فلسطين للدّراسة بعمان..
- أهلاً بك وبأهلنا في المغتصبة فلسطين.. كيف الأهل هناك؟

شدّ انتباهي بكثرة أسئلته التي تفوق عمره.. يبدو ذكيّاً ولمّاحاً:

- كيف تودّ أنْ أحلق لك؟

نظرت إليه في المرآة.. استذكرت الروائي ليو تولستوي حين سأله الحلّاق قائلاً:

كيف تودّ أنْ أحلق لك؟ وهذا أوّل سؤال يطرحه الحلّاق على الزّبون.. فأجاب ليو تولستوي وهو يعرف ثرثرة الحلّاقين فقال: «بصمت! ».

أعاد سؤاله لي:

- أين ذهبت يا صديقي؟
- لم أبتعد عنك.. لقد ذكّرتني بحادثة حصلت بين حلّاق والروائي ليو تولستوي..
- وماذا حدث؟
- لا شيء.. لقد حلق له..
- حسنًا.. كيف تودّ أن أحلق لك؟
- بصمت يا صديقي.. وضحكت ضحكة رقيقة..

وقف مشدوهًا من جوابي ونظراته في المرآة تكاد أن تخترقها وتخترقني.. بدا عليه الإرباك وقال:

- عفواً يا صديقي.. لم أفهمك..
- هذا كان جواب ليو تولستوي يا صديقي الجميل..
- أتعني أنّك تريدني أنْ أصمت؟
- وهل يصمت ثرثار؟!
- أتعني؟

- طبعـاً لا.. ثرثر وثرثر وثرثر ولا تصمت.. ثرثرتك تسعدني وتسلّيني..

(قفز فرحـاً وصرخ بسعادة):

- أقسم بأنّك رائع.. أقسم بأنّني لنْ أسمح للساني بأنْ يتوقف عن الثرثرة.. هههههههههه.

قهقه مسروراً.. يبدو أنّنا أصبحنا أصدقاء من خلال هذه المداعبة خفيفة الدم.. أعاد سؤاله:

- كيف تودّ أنْ أحلق لك يا صديقي؟ يبدو أنّ النيجرو لا يتوافق مع وجهك الجميل..
- يقولون في المثل «أعط الخبز لخبّازه ولو أكل نصفه» «وليس المسؤول بأعلم من السائل» فاحلق لي كما ترى..

سُرّ وسيم كثيراً وابتسامة جميلة ارتسمت على محيّاه.. لقد فاز بزبون جديد بأسلوبه وكثرة كلامه.. التفّ حولي ينظر إلى شعري وأنامله تتراقص برفق بين خصلاتي النيجرو.. وقف خلفي فإذا برأسه يُقارب ارتفاع رأسي.. لقد لاحظته يرتفع على رؤوس أصابع رجليه وهو يحلق لمن سبقوني.. وضع يديه على أذني وفركهما برفق وقال:

- لقد أوكلتني باختيار قصّة تُناسب وجهك.. أليس كذلك؟
- بلى يا صديقي..

- إذن سأختار لك قصّة تنال إعجاب كلّ من يراك خاصّة الصبايا.. (وابتسم ابتسامة خفيفة).
- ألستَ صغيراً على موضوع الصبايا؟
- القصّة ستكون لك وليس لي..
- على بركة الله.. سيكون بيننا ثوابت لا تنساها..
- وما هي؟

نظرت إليه بعينين زائغتين مُستذكراً كلمات تلك الصبيّة التي رمتني بلحظ كلماتها ولمْ أرَها منذ ذلك اليوم.. قام وسيم بمدّ يده إلى ذقني وبدأ يفركها بيده الصغيرة.. أعادني إلى رشدي، فسألته:

- ألا تعتقد بأنّ الشاربين اللذين لا يُحلقان يبقيان ناعمين وخفيفين؟
- بلى.. هو كذلك..
- إذن، فشاربايَ خط أحمر فلا تلمسهما أبداً..
- على رأسي من فوق.. واللّحية؟
- ع الموسى..
- أتحبّذُ استخدام الخيط أم الموسى لإزالة الشعر الزائد عن الخدّين؟
- بل الخيط للخدّين والأذنين والجبهة..

- السّوالف.. ماذا أعمل بها؟
- تتناسب مع القصّة.. هيّا وابدأ عملك..

لم يسكت قط.. يسألني أحيانًا فأجيبه باقتضاب.. وعندما يريدني أن أصمت كي يعمل، يبدأ بالحديث عن نفسه وأخيه ووالده.. لقد أخبرني بأنّ والده قام بإرساله وأخيه لإيطاليا وحصلا على دورة متقدّمة في فنون الحلاقة، وأنّه كان صاحب الترتيب الأول بين المشاركين رغم أنّ عمره لم يبلغ السادسة عشرة.. كما أنّه يقوم بأكثر من ضعفي عمل الكرسيين الآخرين دون أنْ يشعر بالتعب أو الملل.. وقبل أن ينهي عمله أخبرني بأنّه سيرسمني كبيكاسو وبالأجر العاديّ ودون زيادة، كما أنّ استخدامه للسّشوار هو من ضمن سياسة الصّالون المجانيّة.

استذكرتُ **فلِبْسْ** وكثرة كلامه، قلت في نفسي:

«وين أيّامك يا **فلِبْسْ**؟ والله ما بتحكي ربع وسيم.. ».. بدأ يتأكّد لقناعتي بأنّ تسميته بهذا اللقب جاءت من كثرة ثرثرته.

وسيم هو أوّل ثرثار أحبّه.. لا يسمح للملل أن يدخل إلى نفسك.. الغريب أنّه الوحيد بين الحلّاقين الذين عرفتهم لا يبحث عن أسرار.. لكنّه طويل اللسان ثرثار.

أمّا السؤال الذي حيّرني كلّ هذا العمر، فما زال يراودني.. منْ يحلق للحلّاق **فلِبْسْ**؟ أمّا وسيم، فهو الوحيد الذي لم يحيّرني.. أبوه وأخوه يعملان معه بنفس الصّالون.. مؤكّد أنّهم يحلقون لبعضهم بعضًا.. أمّا سفري للأردن وانقطاعي عن نورشمس، أبقى ذاك السؤال حيًّا في عقلي بلا إجابة.

الخيط الأبيض

كما الليل، ينسلّ منه الخيط الأبيض.. يبدأ بالتّوسع حتّى يطرده ويحتلّ مكانه.. النهار يزيح الليل.. أنظر لمحبوبتي المرآة فأرى خيطاً أبيضاً يتموج متسلّلاً من غُرّتي.. أوّل الشّيْب شعرة.. لقد جلبت انتباهي فبدأت بمراقبة رأسي كثيراً.. ازداد قربي من مرآتي فأصبحتُ أقرّبها من مكان جلوسي.. أتوقف عن القراءة.. أتناولها بين يدي.. أحاول إمساك الشعرة البيضاء اللامعة بين سبابتي وإبهامي.. أسحبها بلطف وحذرٍ.. أحرص على أن لا أقطعها.. سُررت بها ولم أخش الكِبَر.. ما زلت شاباً يافعا.. وهذه الشعرة حباني بها ربّي مسحة جماليّة.

تمضي الأيام سريعة.. بدأت خيوط الشّيب تشرئبّ إلى الأعلى.. كخيوط النّهار تتسلّل عبر عتمة الليل لتنير الأرض بإشراقتها مع بزوغ شمسها.. شهور قليلة وإذا بمقدّمة رأسي تتزيّن بكمشة من الشّيب الجمالي.. كانت كالشيّة في جبهة الحصان.

للشعر خاصيّة الجمال، سواء كان سابلاً أو أجعدَ.. يفقد خاصيّته هذه حين لا نعتني به ولا نمشطه.. ننعت كلّ من يهمل ترتيب شعره

ولا يعتني به بالغول.. إنّه يجعل الشّخص بشعاً وأحياناً مخيفاً كمن يعيش في الغاب مع الوحوش والكواسر.

تتسارع الموضات التي تركّز على الشعر لدى الجنسين.. كثرة الإعلانات التي تروّج لمنتجات تزيل الشعر غير المرغوب به.. كما بدأ الناس يبتعدون عن الحنّاء لتغيير لون الشعر وخاصة بين النساء، وأصبح الميل لألوان مختلفة من الصّبغات.. كبيرات السّن هنّ منْ بقين يستخدمن الحنّاء.. لا غرابة أننا رأينا الشعر بالأبيض والأخضر والأحمر والأسود وغيرها من الألوان.. هي طرق احتياليّة لإخفاء الشيب في الشعر.. هذا المرعب الذي يكرهه أكثر الناس.. يقول الشاعر العباسي الشهير إسماعيل بن القاسم العيني، الملقّب بأبي العتاهية، متحسّراً على شبابه بعدما داهمه الشيب:

بكيت على الشباب بدمع عيني
فلم يغن البكاء ولا النّحيب
فيا أسفا أسفت على شباب
نعاه الشّيب والرأس الخضيب
عريت من الشباب وكنت غضّاً
كما يعرى من الورق القضيب
فيا ليت الشباب يعود يوماً

فأخبره بما فعل المشيب

يقولون بأنّ الشّيبة إن انتزعتها بقلعها أو حككتها ازدادَ الشّيب بجوارها.. لست أدري مدى دقّة هذا الكلام.. هذا ما توارثناه.. الحقيقة السّاطعة كنور الشمس هي أنّ مقدمة رأسي من الجهة اليمنى، كثُر بها الشّيب فأصبح كتلة بيضاء تتقدّم جبهتي.. جمّلتني أكثر فكنت أتباهى بها وأعطيها عناية فائقة.. أطيل التغزّل بها حين أنظرها بمرآتي.

وقارٌ هو الشّيب.. عنوان لكبر السّن والتقدم بالعمر.. كبيرات السّن من النساء يقسمن به فيقمن بإمساك طرف الغرّة البيضاء ويقلن: «ومن هالشيبة» كناية عن التزامهن بما يقلن.. ونرى الزجّال الفلسطيني يخاطب الشّيب في رأسه طالبًا منه الصّفح عن محبوبته فيقول:

«يا شيب راسي لا تزعل على أحبابنا»

كأنّ الشّيب يملك صفة العفو والتسامح.

انتقلت للسكن بالرمثا.. مرحلة جديدة بدأت فيها العمل لدى شركة كهرباء محافظة إربد.. احتجتُ أنْ أقصّ شعري.. سألت خالي عن حلّاق جيد.. أجابني بأنّ الحلّاق فوزي عرفة هو الأفضل.. لم أتردّد بزيارته.. رجل أربعينيّ وسيم وأنيق.. وجدته يجلس بالصّالون

وحيداً.. بادرته بالسّلام وأنا أنظر إلى شعره الأنيق.. ردّ عليّ وهو أيضاً ينظر إلى شعري.. كلّ حلّاق عندما يكلّمك، يخاطبك ونظره لا يبتعد عن شعرك.. نظراته تؤكّد له حاجتك للحلاقة.

عرّفته على نفسي وأنّ خالي من بعثني عنده.. رحّب بي وطلب منّي الجلوس على كرسيّ الحلاقة.. دون أنْ يكلّمني قام بربط الملاية حول عنقي.. بدأ يقصّ شعري دون أن يسألني شيئاً.. نظرت إليه باستغراب وسألته عن سبب عدم سؤالي عن نوع القَصّة التي أرغبها.. أجابني:

- أنت تشبه خالك كثيراً..
- هكذا يقول كلّ من يعرفني..
- سبحان الله.. «ثلثين الولد لخاله»..
- المهم.. لمْ تُجبني..
- أحسبك ستقصّ شعرك كخالك.. وهذا لا يحتاج لسؤال..
- غريب ما تقوله..

لمْ يرُدّ عليّ وتابع عمله بصمت قاتل.. كلمته التالية كانت بعد أنْ أنهى عمله حين قال لي:

نعيماً (أيْ أنّ عمله انتهى). في الحقيقة أنّ فوزي كان يختلف عن جميع الحلّاقين الذين عاملتهم.. لقد أسميته بأبا الهول.. يقف

شامخاً ولا ينطق بأيّ كلمة.. فهو حلّاق صامت.. يختلف عن جميع الحلّاقين.. يبدو أنّ مللـه أوصله إلى الصّمت.. وربّما هي طبيعته الصّامتة.

انتقلت للسّكن في قرية حكما لأكون قريباً من عملي في شركة الكهرباء.. لمْ أحاول البحث عن حلّاق جديد.. بقيت أتعامل مع فوزي.. ربّما كنت أحتاج لشيء من الهدوء، فلم أقم بتغييره.. كما أنّه يُتقن عمله.

ذات مرّة بعدما حلقت عند فوزي، عُدْتُ إلى سكني وبدأت أقوم بقصّ شاربيّ كعادتي.. أصبحت أقصّ أحد أطرافهما وأحدّق بصديقتي المرآة.. أرى أنّ أحدهما قد طال عن الآخر.. أصبحت أقوم بتقصير الأيمن فيطول الأيسر.. قَصّرت الطرفين.. استأت جداً.. قمت بحلاقة شاربي لأول مرّة.. نظرت للمرآة التي كادت أنْ تشكو من شدّة الغضب الذي بدا منْ عينيّ.. أحسبني فقدت وسامتي.. رأيتني بشفاه غليظة غيّرت من شكلي.. استأت وقمت أعضّ على أصابعي ندماً.. لِمَ لمْ أسمح للحلّاق بتشذيبهما.. أظنّه كان درساً لي لنْ أنساه ما حييت.. تلك كانت أوّل مرّة.. أظهرت لي أنّ الشاربين يجملانني بشكل كبير.. استذكرت كلمات تلك الصبيّة

التي ألقت بكلماتها، فزرعتها في رأسي ولم أعدْ أراها.. اعترفت في قرارة نفسي أنّ تلك الفتاة، كانت صاحبة ذوق رفيع.

عزائي كان في النظر إلى ميمنة جبهتي.. جماليّة حباني بها الله.. شيبٌ في مقدّمة رأسي أنار وجهي.. ربّما يُبعد ذاك الشّيب نظرات الناس عن شاربيّ إلى كتلة الشّيب الصغيرة.

المهم أنّ الحلّاق فوزي أضاف لحيْرتي سؤالاً آخر.. منْ يحلق للحلّاق فوزي؟ منْ يحلق للحلّاق؟ من كان يحلق **لفلِبْسْ**؟

إلى الكـــــــرك

تعاقدتُ للعمل مع شركة ألمانيّة مع بداية العام 1981م في مدينة الكرك.. أيّام كانون الأوّل، أحسست ببرودتها تلسع وجهي.. قمت قبل يوم مِنْ سفري بالحلاقة عند فوزي.. تلك كانت آخر مرّة أزوره بها.

وصلت إلى مجمّع الجنوب في تمام الساعة العاشرة صباحًا.. سألتُ عن السيّارة التي ستنطلق إلى الكرك.. أشار أحدهم إليها.. اقتربت منها.. وجدت ثلاثة رجال يجلسون في المقعد الخلفيّ.. أمّا أنا فجلست في المقعد الأماميّ بجوار السائق.. لمْ تمضِ سوى دقائق قليلة وإذا بفتاة عشرينيّة، حنطيّة اللّون.. شعرها ينساب على كتفيها وكأنّه حرير أسود، تتهادى مقتربة من سيّارة ال 190 نوع مرسيدس.. تنظر إليّ بعيون أحسبها منهكة من التّعب.. سألتني إنْ كان المقعد المجاور لي فارغًا.. أجبتها بالإيجاب وفي قرارة نفسي أنتظرها بلهفة لتفتح باب السيّارة وتجاورني.. أظنّ أنّ ركاب السيّارة يغبطونني على هذه الرّحلة الطويلة.

ما إنْ خرجنا من عمّان، حتّى نام الشّبان الثلاثة.. عرفت حينها لِمَ جلسوا في المقعد الخلفيّ.. لقد كانوا عسكريين عائدين لقضاء

إجـازاتهم.. فضّـلوا الجلـوس في الخلـف كـيْ يهنـؤوا بنـوم طويـل يريحهم من تعبهم.

البنت المكتنزة قليلاً فرضت عليّ أنْ أضـمّ نفسي مـا استطعت، بينما هي تجلس بكلّ أريحيّة ولا تكلّف نفسها عناء الانكماش ولو قليلاً.. تعبت ولمّا تخرج السيّارة من عمّان.. بدأت أفرج عـن نفسي وأريح أعصابي.. تلاصقت فخذانا فلم تشعرني باستيائها ممّا حدا بي لأن آخذ راحتي.

أحسّت بأنّني أتعبت نفسي بانكماشي.. بادرتني بالقول:

- عفواً.. هل أنت مرتاح؟
- لا بأس.. المهم أن تكوني أنت مرتاحة..
- الطريق طويل جداً.. ستُتْعِبْ نفسك..
- لا عليك.. ارتاحي أنت وسأكون بخير..
- يبدو أنّك (جنتل مان).. خذ راحتك وسأكون سعيدة..
- أشكرك فأنت فتاة لطيفة..

حديثنا يدور همسـًا كي لا نُسـمع السّـائق الـذي أحسبه يركّـز كـلّ حواسه مع الطريق فلا يُلقي لنا بالاً.

خرجنـا مـن عمّـان وبـدأت الطريـق تسـوء وكثـرت فيهـا الحُفـر.. تمايلت السيّارة يمنة ويسرة.. أصبحت أجلس بارتيـاح تـام.. سـعادة

تغمرني عندما تُفاجئنا أي حفرة.. أميل عليها مسروراً وتميل عليّ.. أظنّها تُسرُّ هي الأخرى.. الشبابيك المُشرعة أصبحت تُدْخِلُ الهواء بكثرة.. بدأ شعرها الحريريّ يتطاير فيلامس وجهي.. أحاول إزاحته بلطف كيْ لا تظنّ بأنّني راغب في ذلك.. في قرارة نفسي، تمنّيت لو بقي يداعبني بنعومته ورائحة عطره الزّكيّة.. انتبهت لي فحسبتني أتضايق من شعرها.. اعتذرت بلطف وقامت بجمعه بيدها اليمنى وإزاحته على كتفها الأيمن وبقيت تُمسكه لتمنعه من الانفلات والعودة لمداعبتي.. أجلس وعقلي بين خصلات شعرها، أنتظر لحظة إفلاته لأنعم بملمسه النّاعم ورائحته الزّكيّة.

أخجل من محادثتها فأصمت.. تعود للحديث معي.. أخذت منّي الكثير من المعلومات وأعطتني أكثر.. أخيراً قامت بإخراج ورقة صغيرة من حقيبتها وكتبت لي عنوانها ورقم هاتفها.. طلبت منّي أنْ أكلّمها في اليوم التالي.. مؤكّدة على أنْ أتّصل بها، كما دعتني لزيارتها في بيت أهلها.. أكّدْت لها بأنّني سأقوم بالتواصل معها لاحقًا.. أمّا حقيقة الأمر أنّني دخّنت الكثير من السجائر خلال الرّحلة، كما هي والسائق.. تلك الرّحلة التي أسعدتني وكانت آخر عهدي بها.. لقد فقدت ورقتها ونسيت اسم بلدتها فلم أرها مرّة أخرى.

مضى نحو الشّهر أو أكثر من ذلك قليلاً.. كان لا بدّ لي منْ إيجاد حلّاق في الكرك.. في يوم عطلة بسبب الأحوال الجويّة، قرّرت أنْ أذهب إلى السّوق لأجد حلّاقًا.. كانت الشمس الباردة تتوسط كبد السماء.. تختفي خلف الغيوم حينًا، وتظهر خجلة حينًا آخر.. كغيداء تتراءى لك برونقها ثمّ تتوارى على استحياء.

سرتُ داخل السوق أبحث عن ضالتي.. فجأة بدأت السماء تقطّب متلبدة بغيوم سوداء، مُنذرة بقدوم مطر ربّما يكون غزيراً.. جيوش النّهار الجليّ تقهقرت وتراجعت بنورها أمام جحافل الظلمة والغيوم.. لمْ أكد أصل الصّالون الذي وجدته في شارع جانبي على زاوية الشارع الرئيسيّ، حتّى بدأت حبّات المطر تتهادى وتتساقط معلنة ساعة الصّفر والبدء بهجومها الذي سيكون شرسًا.. الرّياح القارصة زمجرت واشتدت.. أزيزها يحذّرنا طالبًا منّا الانصياع لأوامره والتّخفّي عن عيون البرق والرّعد القادم بضراوة.. غاب ضوء الشمس واسودّت السّماء.. أضحت الدنيا معتمة وكأنّ الليل بدأ يُرخي سدوله علينا.. اندفعت داخل الصّالون.. بدأ البرق يلمع لمعانًا شديداً ومتتابعًا.. يلحقه الرّعد يُسابقه بصرخاته المخيفة.. أمّا أنا، فقد كان شعري الذي ينقط ماءً يتراكم على رأسي وكأنّه قطعة سوداء أرخت سدولها معلنة انهزامها وعجزها عن النّهوض.

لفت نظري الحلّاق بأنّه أجروديّ.. نظرت إليه حين أصدر ضحكة أزعجتني وهو يحدّق بي.. لاحظت أنْ لا شعر ولا لحية ولا حواجب أو رموش له.. يخلو من الشّعر ويعمل حلّاقاً! انتبه لانزعاجي منه فبادرني بضحكة لطيفة:

- أهلاً بك..
- وبك..
- هل زرتنا محتمياً من المطر أم أنّك جئتنا زبوناً تريد الحلاقة؟
- بل زبون.. ولكن، يبدو أنّني أخطأت بالعنوان..
- أعتذر يا صديقي فأنا لمْ أقصد الإساءة..
- لا عليك..
- أكرّر اعتذاري الشديد..

تناول بشكيراً وأعطانيه كي أجفّف شعري.. طلب منّي بأدب أن أجلس على كنبة أشار إليها ثمّ تقدّم ونفخ بفمه لازالة بعض الشعيرات عنها.. جلستُ وهو يكرّر عبارات الاعتذار والترحيب بي.. أنهى عمله مع زبون كان يحلق له.. استأذنني بالجلوس على كرسيّ الحلاقة.. اقترب منّي حتى قارب وجهه أنْ يلامس وجهي، وقال بلطف وأدب:

- أرجو أن لا تكون قد حملت فكرة سيئة عنّي يا صديقي..
- لا عليك.. فقط هو انقلاب الطقس المفاجئ أزعجني..
- أتمنى أن تصبح أحد زبائني الدائمين..
- عملك هو مَنْ سيحكم..
- إذن، أنا أعتقد بأنّني سأضيف لنفسي صديقًا، ولصالوني زبونًا.. كيف تريدني أنْ أحلق لك؟
- سأتركها على ذوقك.. «أعط الخبز لخبّازه ولو أكل نصّه»..
- لا تقلق.. سيكون شعرك بين أناملي الذّهبيّة..
- سأرى.. «ومن سلّمك منحره، لا تنحره».. وضحكت كأنّني أداعبه ولأريحه..
- بالنسبة للّحية والشاربين؟
- أريد ذقنًا بالنسبة للّحية.. أمّا بالنسبة للشاربين..
- أها.. ماذا؟

تذكّرت يوم فشلي بقصّهما وما أصابني، فقلتُ:

- عليك أنْ تقوم بتقصيرهما إلى ما دون الشّفة العليا بقليل دون أن تقوم بتخفيفهما..
- هل تُمانع باستخدام الخيط؟

- أبداً.. أريدني جميلاً وكفى.. باشر عملك لأنّني في عجلة منْ أمري..

ربط ملايته وبدأ يتفنّن بعمله.. أخرجني عريسًا جميلاً.. سُررت بكلّ ما قام به.. نقدته ديناراً زيادة عن أجره.. أصرّ على إعادته شاكراً لي مسامحته ومرحّبًا بي طالبًا منّي أن أزوره كلّما سنحت لي فرصة.. شكرته واستأذنته بالمكوث قليلاً حتّى يخفّ تساقط الأمطار.. فرحبّ بي طالبًا أنْ يقوم بطلب فنجان قهوة لي.. رفضت بلطف وأدب وجلست أنتظر أنْ يتوقّف المطر.. أنظر للمرآة فأعجب بنفسي وبالجلوة التي حصلت عليها.

حضر رجل مسنٌّ ومعه شاب خطّ شارباه (بدأ شارباه بالظهور).. بدأ بالحلاقة للرجل.. خلال حوارهما، وكان حول ولده الذي يعرفه الحلّاق.. قال الرّجل:

«إذا طلع ذقن ابنك.. فزيّن ذقنك»، كناية عن أنّ ولده أصبح بالغًا وأصبح بعِداد الرّجال.. في الأثناء مرّت سيّارة وأصدرت صوتًا مفاجئًا وعاليًا من المنبّه.. جفَلَ الحلّاق وهو يستخدم موس الحلاقة.. جرح الزّبون جرحًا صغيراً.. اعتذر للزّبون وقام بإحضار علبة إسعافات أوليّة، وقام بتضميد الجرح.. حينها انقلب الحديث ليدور حول الدّور التاريخي للحلّاق بالتطبيب والمعالجة وكيف أنّ

هـذا الـدّور العلاجي بـدأ يتراجـع شـيئـًا فشـيئـًا إلـى أنْ أوشـك علـى الانتهاء.

ألقيت نظرة إلى الخارج لأرى شـدّة المطر وغزارتـه.. قـرّرت أنْ أخـرج فقـد تـأخّرت كثيـراً.. انسـابت ميـاه الأمطـار عـن رأسـي حتّـى دخلت فمي.. تـذوّقتها فـأعجبني طعـم عـذوبتها.. تـذكّرت أنّ غـزارة الأمطار وعذوبة الأنهار لن تُقلّل من ملوحة البحار.

تذرف السماء دموعها فوق رأسي.. تَبكيني لضياع فرحتي تحت قطراتهـا البـاردة.. سـيزول جمـال عمـل السّشـوار ويعـود شـعري المتكسّر كما كان قبل الحلاقة.. تتراكم خصلاته فـوق بعضـها تنـدب حظّها التعيس.. لا فرحة ولا أناقة، لقد أضاع المطر وسامتي وجمـال حلاقتي.

حلّاق الكرك بوسامته وأناقته، أعادني إلى **فلِبْسْ** ومن يحلـق لـه.. الآن لديّ إضافة جديدة.. منْ يحلق للحلّاق جميل؟

جميل حلّاق ثرثار كغيره من الحلّاقين.. أمّـا أنـا، فقـد اعتـدتُ أنْ أشتري منه ولا أبيعه.. أسمعه وأتزوّد منه بالأخبـار والمعلومـات.. لا أعطيـه إلّا القليـل وغيـر المفيـد.. اعتـاد عليّ وعلـى رغبـاتي.. أصـبح يتجنّب سـؤالي عـن شـيء.. فقـط يعطينـي الأخبـار ولا ينتظـر تعليقـًا منّي.

سنتان في الكرك.. استطعت أن أعرف الكثير خلالهما وأنْ أتعرّف على الكثيرين وخاصّة من خلال جميل.. علاقتي بجميل كانت ممتازة وقويّة، إلّا أنّني استسخفت نفسي أن أسأله عمّن يحلق له.. عُدْت إلى الرمثا للالتحاق بالخدمة العسكريّة.. بقي سؤالي وبقيت حيْرتي.. منْ يحلق للحلّاق؟! منْ يحلق للحلّاق **فْلِبْسْ**؟

العودة إلى الرمثا

من الرمثا بدأتُ مسيرةً جديدة من خلال الإلتحاق بالقوّات المسلّحة.. تتسارع الأيام، تمضي وتُحدِثُ موضاتٍ جديدة.. كما تنوّعت قصّات الشعر.. أصبحنا نرى قصّات غريبة تشمئزّ منها النفوس، لدرجة أنّ رجال الأمن كانوا يقومون بحلاقة شعر بعض الشباب على الصّفر، خاصّة المتشبّهين منهم بالهبيّين.. هؤلاء الهيبيز كانوا مقرفين حتّى في بلاد الغرب.. تمقتهم بلادهم، فكيف نقوم بتقليدهم؟!

حتّى النساء أصبحن في سباق مع الزّمن لمواكبة التسريحات والقصّات حتى أصبحنا نرى بعض الرّجال يقومون بعمل تسريحات لنساء في محلّات مرخّصة رغم مخالفتها لديننا وعاداتنا وتقاليدنا التي توارثناها عن آبائنا وأجدادنا بفصل الذكور عن الإناث، وخاصّة في مجال الحلاقة.

أوّل ما يستقبلنا به الجيش، هو حلاقة شعر جميع المنتسبين الجدد على الصّفر.. لا تمييز ولا استثناء.. يقف الجميع بطابور واحد.. يصطفّون خلف بعضهم بعضا بانتظام.. يقوم الحلّاق بالحلاقة للجميع بلا محاباة.. يأمل الجيش بدخول الجميع لصفوفه

بشكل نظيف مبتعدين عن الأمراض.. تبقى الحلاقة على الصّفر طيلة فترة التدريب التي تمتد لشهور ثلاثة.. يتم توزيع الجميع بعدها على وحدات مختلفة.. في كلّ وحدة يوجد هناك حلّاق لا يقوم بسؤالك كيف ستحلق.. في صالونه المتواضع مرآة واحدة متوسطة الحجم وبجانبها صورة لرأس رجل تُعتبر حلاقته أنموذجاً للحلاقة العسكريّة.

أصبحت في موقع المسؤوليّة من خلال حصولي على رتبة عسكريّة.. تمّ تكليفي كنائب مساحة إضافة إلى مناوبتي لوكيل القوّة.

ذات يوم جاءني أحد الجنود يشكو الحلّاق.. عندما سألته عن سبب الشكوى، أدار لي ظهره وأشار إلى رقبته من الخلف.. حين رأيته، انفجرت ضاحكاً.. سألته:

- ما هذا؟ أرى أنّ قصّة رقبتك ارتفعت لتصل إلى منتصف رأسك!
- نعم يا سيّدي.. لست أدري لِمَ فعل الحلّاق هذا بي!
- اذهب واحضر لي الحلّاق..

حضر العسكري ومعه الحلّاق.. أمرت العسكري بالانتظار خارج المكتب.. سألت الحلّاق:

- ما هذا؟ ما هذه الحلاقة؟ أنت صديقي ولكنك تخالف القانون العسكريّ..
- أنت تعلم يا سيّدي بأنّ هذا الجندي ثقيل الدّم (بارد).. لا أحد يحبّه..

بدأ يضحك.. وأضاف:

- جلست مع بعض العسكر.. الجميع اشتكى منه.. تطوّعت بمعاقبته حينما يحضر للحلاقة.. وها هو قد حضر..
- وأنت قمت بعمله أضحوكة للجميع..
- نعم يا سيّدي.. ولست نادمًا.. هههههه..

طلبت منه المناداة على العسكريّ.. اقتدتهما إلى الضّابط المسؤول.. رجل أربعينيّ ضخم الجسم.. طويل القامة.. هادئ الطّباع.. بتمتع بخلق عال.. محبوب من الجميع.. عادل ومتّزن بقراراته وأحكامه.. وقفت أمامه وقفة عسكريّة.. قمت بأداء التّحيّة.. رحّب بي وقال:

- أهلاً بك يا توفيق.. تفضل..
- أهلاً بك سيّدي.. لديّ مشكلة حصلت بين الحلّاق وعسكري من أفراد الكتيبة..
- أين هما؟

- يقفان خارج مكتبك..
- وماذا حصل بينهما؟ هل قمت باستجوابهما؟
- نعم يا سيّدي.. وسردت له ما جرى..
- دعهما يدخلان..

نظر إلى العسكري فاستغرب أنّه لمْ يرَ شيئـًا.. التفت إلى الحلّاق وقال له:

- أنا أعرف أنّك عسكريّ محترم وملتزم.. ماذا جرى؟
- لمْ أتعمّد ما جرى يا سيّدي.. لقد انزلق الموسى إلى أعلى رقبته قليلاً.. كان لا بدّ لي من رفع تحديد الرقبة قليلاً.. أمّا هذا العسكري، فلا يعجبه ما جرى.. وإنّي أعتذر عمّا حصل..
- ولكنّني لا أرى شيئـًا..

التفّ العسكري ليُري الضّابط ما جرى.. حينما رآه، انفجر ضاحكـًا ولمْ يتمالك نفسه.. وقال مخاطبـًا الحلّاق:

- وهل تعتقد بأنّه سيقبل بهذه الحلاقة؟ علينا أن نقوم بإصلاح الأمر أولاً..
- وكيف يا سيّدي؟ لا أرى طريقة لإصلاح الأمر..
- ستذهبان إلى الصّالون الآن.. يقوم الحلّاق بالحلاقة للعسكري على الشفرة حتّى يتساوى طول الشّعر كلّه، ثمّ

سيقوم هو بالحلاقة لك على الصفر.. أمّا أنت يا وكيل القوّة، فستكون المشرف على تنفيذ الأمر.

خرجنا والحلّاق يضحك.. العسكري يزمجر غضباً.. اقترب منّي الحلّاق وهمس في أذني قائلاً:

لا يهمني ما سيحصل.. المهم عندي أنّ هذا النِّكِدْ أصبح مهزلة بين العسكر.

لمْ يقتنع العسكريّ بحكم الضّابط.. تذمّر أمامي كثيراً.. قلت له:

«مالك مش عاجبك العجب، ولا الصّيام برجب؟ والله احترنا يا قرعة منين نبوسك».. اصمت ولا تتحدّث بكلمة أخرى.. لقد أنصفك الضّابط وكفّى ووفّى.

خرجنا من مكتب الضّابط والعسكريّ بأسوأ حالة.. أمّا الحلّاق فقد كانت سعادته بادية على وجهه لشعوره بأنّه انتصر على ذاك البغيض.. أمّا أنا، فقد تمنيّت أنْ أضحك ملء شدقيّ.. لم نبتعد عن المكتب لأكثر من بضعة أمتار.. التقانا إمام الوحدة بأناقته وبزيّه العسكريّ الدّينيّ.. استوقفنا وهو يبتسم.. سلّم علينا جميعاً ثمّ قال:

- ما بكم يا أبا ماهر؟ أرى أنّ هناك مشكلة بين الشباب!
- صحيح يا شيخنا (وشرحت له ما جرى)..

عندما أمرت العسكريّ بأن يلتفّ ويُري حلاقته للشّيخ، انفجر ضاحكًا.. صمت بشكل مفاجئ معلنًا اعتذاره للعسكريّ وقال:

- لقد أخطأت بتصرّفك هذا.. هذه حلاقة لا تليق برجل عسكريّ..
- صدقني يا سيّدي بأنّني لم أقصد الإساءة لزميلي..
- لقد بشّعت منظره أولاً..
- وثانيًا يا شيخنا؟
- لقد وقعتَ بمحظور شرعيّ..
- أها.. وما هو.. أفِدنا أفادك الله..
- يقول تعالى: ﴿أمّن هو قانتٌ آناء اللّيل ساجداً وقائمًا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنّما يتذكّر أولو الألباب﴾.. الآية 9 من سورة الزّمر.

ويقول: ﴿ولقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم﴾.. الآية 4 من سورة التين.

لقد قزعت له شعره يا هذا.. وهذا منهيٌّ عنه في ديننا الحنيف..

- وكيف ذلك يا شيخ؟
- لقد قصّرت له شعر نصف رأسه من الخلف دون باقي شعره..

- وما دليلك على ذلك يا شيخنا؟
- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «نهى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن القزع».. متفق عليه.. وعنه صلّى الله عليه وسلّم قال حين رأى صبيّاً حُلِقَ بعض شعر رأسه وتُرك بعضه، فنهاهم عن ذلك الأمر قائلاً: «احلقوه كلَّه أو اتركوه كلَّه».. رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم.. وعن عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم أمهل آل جعفر ثلاثاً، ثمّ أتاهم، فقال: «لا تبكوا على أخي بعد اليوم».. ثمّ قال: «أدعوا لي بني أخي».. فجيء بنا كأنّا أفرخٌ، فقال: «ادعوا لي الحلّاق».. فأمره فحلق رؤوسنا. رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم.
- جميل.. نفع الله بك وبعلمك.. هل أنت مشغول الآن يا شيخنا؟
- لا، أبداً..
- هل تُمانع بمرافقتي لمكتبي.. أريد الاستزادة منك ومن علمك..

- على الرّحب والسّعة.. هيّا بنا.. أمّا أنت أيّها الحلّاق فلا تعُدْ لمثل هذا أبداً..

أمرتُ الحلّاق والعسكريّ بالذّهاب إلى الصّالون وتنفيذ أوامر المقدّم، وبعد الانتهاء عليهما الحضور لمكتبي لأرى مدى دقّة تنفيذهما للأوامر.. أمّا أنا والشّيخ فقد ذهبنا إلى مكتبي لأستمع لمزيد من المعلومات عن القزع الذي لا أعرف معناه وكيف يكون.

بعد أن قام أحد الجنود بعمل إبريق شاي لنا، بدأ الشّيخ يعطيني معلومات مفصّلة عن القزع، فقال:

- لنبدأ بتعريف القزع للشّعْر.. فهو حلق جزء من الرّأس أو تقصيره دون باقي شعر الرّأس.. قال النووي رحمه الله: «أجمع العلماء على كراهة القزع إذا كان في مواضع متفرّقة، إلّا أن يكون لمداواة أو نحوها.. وكراهته للرّجل والمرأة».. وسُئِلَ الإمام أحمد بن حنبل عن حلق القفا، فقال: «هو مِنْ فِعْل المجوس، ومَنْ تشبّه بقوم، فهو منهم».. وللقزع هذه الأيّام مسمّيات مختلفة.. منها، الكابوريا، المارينز، ومسمّيات أخرى.. أمّا أنواعه فهي..

استوقفته لتناول الشاي ساخنـًا.. ابتسم لي وقال:

- والله إنّ سروري بهذه الجلسة لا يقارن بكأس شاي ساخن.. إن مللتَ فسأتوقف..
- أبداً، فأنا مسرور لما أسمع..
- لن أطيل عليك.. فقط سأذكر لك أنواع القزع لأعود وأنعش معدتي بهذا الشاي اللذيذ.. أمّا أنواع القزع، فهي:

1. القزع غير المرتب من أحد الجانبين، أو النّاصية، أو من الخلف..
2. حلق الوسط وترك الجانبين..
3. حلق الجوانب، وترك الوسط..
4. حَلق النّاصية، وترك الباقي..
5. حلق المقدّمة، وترك المؤخّرة..
6. وأخيراً.. حلق المؤخّرة، وترك المقدّمة كصاحبنا..

أربعة أعوام وأنا أحلق في الكتيبة.. تردّد عدد من الحلاقين على نفس الصّالون.. كلّهم ربطتني بهم علاقات طيّبة.. كانوا يحرصون على أن تكون حلاقتي جميلة ومُتقنة.. الغريب في الأمر أنّهم جميعًا كانوا يحلقون بطريقة لافتة.. أمّا الحقيقة المرّة أنّني لمْ أقمْ بسؤال أيٍّ

منهم عمّن يحلق له؟ بقي السؤال يلاحقني وبقيت الإجابة بعيدة المنال رغم قربها منّي.

اشتقت إلى الحلاقة بالصّالون المدنيّ.. ما إن أنهيت التزامي مع الجيش، حتّى أسرعت في البحث عن صالون غير فوزي.. نصحني إخوتي بصالون الشباب والحلّاق محمد مطر وأخيه حسن.. بداية ناجحة كانت بعد عودتي إلى الرمثا.. لمْ أخرج يومًا إلّا مسروراً.

الموضات زادت سوءاً للجنسين.. حلقة المارينز، الكابوريا، الفيرزاتشي، وغيرها، انتشرت كما النّار بالهشيم.. أصبحنا نرى قصّات تشمئزّ لها النفوس.. القزع أصبح هو المفضّل لغالبيّة الشباب.

العُمْـــرَة

صالون الشّباب أصبح قبلة المتعلمين والمثقفين كما باقي فئات المجتمع.. أحياناً تجد أنّك في صالون أدبيّ.. أحياناً أخرى، تجد أنّك في صالون ثرثرة فارغة.. أحياناً أخرى ترى أنّك في حضرة صحافيّين وإعلاميّين.. الكلُّ يُعطي أخباراً.. بعضها صحيح، والبعض الآخر لا يزيد على كونه توقّعات ومهاترات وإشاعات.. ما كان يسعفني في مثل الجلسات الأخيرة، هو وجود بعض الصّحُف والمجلات أمامي على طاولة صغيرة.. أقضي فترات انتظاري أتصفّحها بملل.. لا يخلو الأمر من نكشات يتقنها الحلّاق حسن بسؤال عن أمر ما، فهو لا يرتاح إنْ أحسّ بأنّ أمراً ما قد فاته.. كما يقولون، «لا تخفى عليه صغيرة ولا كبيرة».

حان وقت زيارتي للأماكن المقدّسة لأداء العمرة.. رحلة رافقت خلالها مجموعة طيبة.. ما إن وصلنا حتّى صادقتُ رجلين من المرافقين.. أحدهما، كان قد اعتاد على مرافقة الباصات في مثل تلك الرّحلات.. أبو أحمد، بدى دمث الخُلُقْ، شهماً، كريماً.. لا يتوانى عن مساعدة كلّ من يحتاج للمساعدة.. رجلٌ متوسّط القامة.. حنطيّ البشرة.. ابتسامته لا تفارق محيّاه.. ممتلئ الجسم، رشيق بتحرّكاته..

لا ينفكّ يذكر الله في كلّ أمر يقوم به.. لا يحدّث إلّا إذا سُئل أو طلب منه الحديث.. أما الآخر الذي يكنّى بأبي خالد، فقد كان رجلاً ضخم الجسم، قويّ البنية، عصبيّ المزاج.. ذا بشرة سوداء، لكنّ حسن خلقه ومعشره بيّضا لونه.. قريب إلى القلب إذا تحدّث.. عديم الصّبر.. يثور على أهون الأسباب.. كثيراً ما كان أبو أحمد يهدّئه.. سريع الامتثال فلا يُعاند.. كانا مرشديَّ في أداء مناسك العمرة.. حين أنهيت أداء المناسك، أردت الجلوس لأستريح من تعب السّعي.. أوقفاني وهما يبتسمان.. باركا لي بإنهاء الشّعائر بتقبيلي ومصافحتي.. شكرتهما وطلبت منهما أن نرتاح قليلاً كيْ نذهب للتحلّل وننزع ملابس الإحرام.. تقدّم أبو أحمد بابتسامته التي تُريح النّفس وفي يده مقص صغير.. قام بمسك خصلة صغيرة من شعر رأسي وقصّ القليل منها.. نظر في وجهي وابتسامته لا تفارق محيّاه.. أراني الشّعرات وبارك لي بالعمرة.. رغم أنّني كنت متعباً كثيراً، إلّا أنّني شكرته وقلتُ له:

– مشكور يا صديقي.. ولكنّني لست مقتنعا بهذا التحلّل..

أبو أحمد: ولِمَ؟

أبو خالد: وما الذي لا يُعجبك؟

أبو أحمد: هدّئ من روعك يا أبا خالد.. أبو ماهر يؤدّي العمرة لأوّل مرّة.. الرّجل غشيم.. خذه بحلمك..

أنا: كلّ التّقدير لكما.. ولكن، لا بدَّ لي من حلق شعر رأسي كاملاً، وعلى الشّفرة، وليس على الصّفر..

أبو خالد: يا رجل.. هكذا يكفي..

أبو أحمد: أعتقد بأنّ أبا ماهر على حق..

أبو خالد: ماذا تعني؟ هل قصّنا لشعرنا بالمقصّ لا يحلّلنا؟

أبو أحمد: أبداً.. كلاكما على صواب.. لكن هناك المصيب، وهناك الأصوب..

أبو خالد: وكيف ذلك؟

أبو أحمد: أبو ماهر يُطالب بأن يكون من المحلّقين ليحصل على أجرٍ أعظم من أجرنا..

أبو خالد: حسناً ولكنّني لن أحلق بالماكينة، ولا بالموس.. سأكتفي بالقصّ اليسير..

أبو أحمد: لا بأس عليكما.. هيّا إلى صالون الحلاقة.

داخل صالون الحلاقة المكتظّ بالمعتمرين وعدد الحلّاقين الذي زاد عن الخمسة، جلستُ أنتظر دَوري وأنا أقلّب نظري بين رؤوس الحلّاقين.. لا يغيب **فلِبْس** عن بالي.. أستذكره وأحاول أن أجد

إجابة عمّن يحلق له.. أمّا هؤلاء فأعتقد (ولا أجزم باعتقادي)، بأنّهم يحلقون لبعضهم، وهذا أرجح الاحتمالات.. كما أنّهم جميعاً يحلقون على الصّفر، لكنّ حلاقتهم أنيقة ومرتّبة.

انتهينا من الحلاقة.. بمجرّد خروجنا، سألنا أبو خالد إن كنّا نرغب بتناول البوظة؟ سارعت بإعلان قبولي بسبب شدّة الحرّ.. بعد تناولنا للبوظة، ناديت على أحد العمّال لأنقده ثمن البوظة.. انفجر أبو خالد صائحاً:

أبو خالد: لا تدفع.. سأدفع أنا..

أنا: لا فرق بيننا يا صديقي.. الجيب واحد..

أبو خالد: لا تقُل واحد.. أنا مَن دعوتكم، وأنا من سيدفع..

أبو أحمد: دعه يدفع يا أبا ماهر ولا تناقشه.. سيفضحنا إذا لم يدفع..

أبو خالد: بل سأفضحكم وسأتقيّأ البوظة، ولن أرافقكم..

نظرت إليه وابتسمت طالباً منه أنْ يهدأ ويدفع وله منّا الشكر ومن الله الأجر والثواب.

في اليوم التالي، ذهبت مبكراً لأداء صلاة الظّهر.. بعد أن ارتحت من الطّواف والسّعي في اليوم الأول، شدّني الشوق لزيارة الحرم والتّعرّف عليه.. وجدت بعض الرّجال يتحلقون حول شيخ كان

يرتفع عنهم قليلاً بجلوسه على كرسيّ ويتهيّأ ليقدّم درساً دينياً.. رجلٌ ضخم البُنية، لون بشرته البيضاء يميل للاحمرار أكثر منه إلى البياض.. جميل الخِلقة بهيّ الطّلعة.. ضخم الشّفتين أفطس الأنف، في جبهته نقطة سوداء كبيرة مِنْ أثر السّجود.. يُلقي على رأسه شماغاً أحمر اللّون بلا عِقال.. يُلقي على كتفيه عباءة تدلّ على ثرائه فهي من العباءات غالية الثّمن.. وجهه الباسم يريح النّفس بالنّظر إليه.. لا يحمل كتاباً بين يديه فهو يلقي محاضرته ارتجاليّاً.. قال بأنّه سيتحدّث عن الشَّعر بشكل عام للذّكور وللإناث، وما يُسنّ وما لا يُسنّ لكلّ فئة.. سررت بالموضوع وجلست قريباً منهم ألقي السّمع بشغف.

بدأ حديثه بتلاوة الآيتين خمسة وثلاثين وستّة وثلاثين من سورة آل عمران.. إذ يقول تعالى في مُحكم كتابه الكريم:

﴿إذْ قالتِ امرأةُ عِمران ربّ إنّي نذرت لك ما في بطني مُحَرّراً فتقبّل منّي إنّك أنت السّميع العليم (35) فلمّا وَضَعَتها قالت ربِّ إنّي وضعْتُها أنثى والله أعلم بِما وَضَعَتْ وليس الذّكرُ كالأنثى وإنّي سمّيْتُها مريم وإنّي أُعيذها بك وذرِّيَّتَها مِنَ الشّيطانِ الرّجيم﴾..

وقال في الآية 12 من سورة الإسراء:

﴿وجَعَلنا اللّيْل والنّهار آيتين فمحَوْنا آية اللّيل وجعلنا آية النّهار مُبْصرةً لتبتغوا فَضْلاً مِنْ ربِّكم وَلِتَعْلموا عَدَدَ السِّنين والحِسابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلناهُ تَفْصيلاً﴾.

تطرّق الشيخ إلى العديد من الفوارق الفسيولوجيّة والتكوينيّة الجسدية بين الذّكور والإناث.. كما أكّد على الاختلافات الواجب أن توجد تمييزاً وتماشياً مع طبيعة كلّ منهما.. مؤكّداً على تحريم تشبّه كلّ منهما بالآخر.. فقال:

- عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المتشبّهين مِنَ الرِّجال بالنّساء، والمتشبِّهات مِنَ النّساء بالرِّجال».. كما أكّد على تحريم حلق شعر رأس المرأة لأنّه تشبّهٌ بالرِّجال، إنّما أَسنَّ لهُنّ التّقصير، واستثنى مَنْ برأسها أذىً وتودُّ أنْ تُعالجَ رأسها. القاعدة الشّرعيّة تقول بأن لا ضرر ولا ضِرار.. واستشهد أيضاً برواية عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم قال:

«ليس على النّساء الحلق، إنّما على النّساء التّقصير».

صمت الشّيخ قليلاً.. أجال ببصره على المتحلّقين حوله وكأنّه يطلب منّا الانتباه.. تنحنح وعاد يقول:

- قال النّووي رحمه الله، قال أصحابنا: حلْقُ شعر الرّأس جائز بكلّ حال، لكن إنْ شُقّ عليه، تَعَهّدهُ بالدّهن والتّسريح، فقد استُحِبَّ حلقه، وإن لمْ يُشَقَّ فيُستحبُّ تركه.

رفعت يدي أستأذنه بالحديث فسمح لي.. سألته:

- فهمتُ مِنْ كلامك يا شيخنا بجواز إطالة الشّعر للرّجال عِلمًا بأنّ الإطالة هي للنّساء..
- نعم فإطالة الشَّعر واردة عنه صلّى الله عليه وسلّم.. لقد كان له أربع ضفائر، ويصل إلى كتفيه، إنّما كان يتعهّده ويدهنه بالزّيت، على أن يرافق إطالة الشّعر، إطلاق اللّحية ليكون سنّة ولا يقوم بالنّمص وترقيق الحواجب لدرجة تصل إلى التّشبّه بالنّساء.

كان يكلّمني وأنا أنظر إلى شعر رجل يجلس أمامي.. انتبه لي الشّيخ.. فأضاف:

- على سبيل المثال، فشعر هذا الرّجل الجالس هناك (وأشار لمن هو أمامي)، شرعيٌّ تمامًا.. (وكأنّه أرادني أن أفهمها)، فهززت رأسي موافقًا.

حان موعد الصّلاة فقال الشّيخ بأنّ محاضرته في الغد وبنفس الموعد والمكان ستكون حول شعر المولود الجديد.

دُهشت حين سمعتُ الشّيخ يحدّد موعداً لمحاضرة حول شعر المواليد الجدد.. بعد انتهاء الصّلاة وخروجنا من الحرم، انطلقت مباشرة إلى الفندق.. لمْ أصعد لغرفتي.. جلست في قاعة الاستقبال أفكّر في ما قاله الشّيخ.. حضرت زوجتي فطلبت منها أن تصعد إلى الغرفة وأخبرتها أنّني سألحق بها بعد قليل.. مضى وقت قصير وإذا بصديقيّ يحضران.. اقتربا منّي وسألاني عن غيابي عنهما وإن كنت قد ذهبت للحرم أم لا.. أخبرتهما بما جرى.. قال أبو خالد:

– ما بك تجلس هنا؟ لِمَ لا تصعد إلى غرفتك؟

أنا: جلست أستريح قليلاً أفكّر فيما قاله الشّيخ..

أبو أحمد: كما أسلفتَ فإنّ الشّيخ قال الكثير.. فما الذي أشغل تفكيرك؟

أبو خالد: نعم.. ما الذي أشغل تفكيرك لهذه الدّرجة؟

أنا: أمرٌ بسيط جداً..

أبو خالد: وما هو البسيط.. هيّا تكلّم..

أنا: على رِسلك يا أبا خالد.. مالي أراك محتدّاً؟

أبو أحمد: هو على طبيعته.. ليس محتدّاً، إنّما هذا عقله. وضحك ثمّ تقدّم للجلوس بجواري تاركاً أبا خالد يقف وكأنّه شرطيّ مرور..

أنا: ما أشغل تفكيري هو حديث الشّيخ عن شعر الطّفل..

تقدّم أبو خالد نحوي.. جلس بجواري من الجهة الأخرى.. وضع يده على ركبتي.. قرّب رأسه من رأسي.. همس بهدوء مبالغ فيه:

أبو خالد: هل أنت طبيعيّ؟ إن كنت تعاني من ارتفاع بالحرارة فجعلتك تهذي أصبح لزامًا علينا أن نأخذك إلى المستشفى. (وقام بوضع يده على جبيني يتحسّسني).

ضحكت ملء شدقيّ.. نظرت إلى أبي أحمد الذي كان يضحك واضعًا وجهه بين كفّيه كيْ لا يراه صديقنا فيغضب.. قلت له بعد أن تناولت حبّة من الحلو كنت أضعها في جيبي:

أنا: يا أبا خالد العزيز.. الغريب في الأمر أن يُفرِدَ الشّيخ محاضرة لشعر حديثي الولادة..

أبو خالد: هل هذا كلّ ما تفكر فيه؟

أنا: لا تفهم حديثي بشكل خاطئ.. ما يحيّرني هو أنّ شعر المولود ربّما لا يحتاج لحديث طويل يوجب إفراد محاضرة كاملة له.. لقد لفت انتباهي الشّيخ لأمرٍ مهمٍّ..

أبو خالد: وما هو؟

أنا: علينا أنْ نحضر هذه المحاضرة غداً..

أبو أحمد: لا تستغرب يا أبا ماهر.. الأمر يحتاج لمحاضرة وأكثر والموضوع له أهميّة كبرى.. يجب أن نحضر تلك المحاضرة كما قلت..

اتّفقنا على موعد في اليوم التالي وصعد كلّ منّا إلى غرفته.

هرجٌ ومرجٌ وأحاديث بين هذا وذاك بين منتظري الشّيخ.. فجأة أطبق الصّمت على الجميع.. رفعت رأسي لأجد الشّيخ وقد اقترب من كرسيّه.. سلّم علينا وجلس فتحلقنا حوله وعيوننا ترنو لعينيه.

أعطى الشّيخ أهميّة كبرى لحلاقة شعر المولود بعد أسبوع واحد وشدّد على هذا الموعد.. أضاف بأنّ الحلاقة يجب أن تكون بالموس وليس بالماكينة والقيام بوزن الشّعر والتّصدّق بمثل وزنه فضّة.. من خلال الأسئلة وإجابات الشّيخ، عرفنا أنّ الحلق له فوائد عديدة، واستشهد بما قاله الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم:

«كُلُّ غلامٍ رهينةٌ بعقيقتِه تُذْبَحُ عنهُ يوم سابعهِ، ويُسمّى فيه ويُحلق رأسُهُ»، وأنّ التّصدّق بوزن الشّعر فضّة هو من قبيل التّكافل الاجتماعيّ ومشاركة الفقراء في الأفراح فيُقضى على الحسد والحقد.

أمّا من النّواحي الصّحيّة، فالحلق للذّكر والأنثى من المواليد الجدد يؤثّر إيجابًا لأنّ رأس الجنين يكون عليه مايكروبات وهو في

رحـم أمّـه فيقـوم الحلـق بإزالـة هـذه المايكروبـات.. كمـا أنّ الحلـق يخلّص المولود مـن الشّـعر الضّـعيف فينمـو الجديـد بشـكل أقـوى.. تُفتح مسامّ الرأس فيخرج منه البخار بسهولة ويُسْرٍ، كمـا أنّ الحلاقـة تقوي الحواس وينمو نتيجة لها شـعر أنعـم مـن الأوّل إذا تـمّ الالتـزام بالموعد الـذي هـو أسـبوع بعـد الـولادة؛ إذ بعـدها مباشـرة يبـدأ شـعر المولـود بالتّسـاقط ويُسـتبدل بغيـره، فـإذا تـمّ حلقـه، فسـينمو شـعرٌ مختلفٌ عن سابقه باللّون والكثافة وحتّى النّعومة، على عكس ما هـو متَعارف عليه مِنْ أنّ الحلاقة تقوم بتخشين الشّعر.

هممت بالخروج، بعـدها انتقـل الشّـيخ للحـديث عـن حَلْـق شـعر رأس المرأة فجلست لأستزيد من علم ذاك الشّيخ.. أورد حلاقة شعر المرأة بحالات ثلاث هي:

1. الحلقُ لضرورة من مرض أو نحوه فهو جـائز لأنّ الضّـرورات تُبيح المحظورات.
2. الحلـق بعـد الحـجّ والعمـرة مُحـرّمٌ، واستشـهد بحـديث ابـن عبّاس رضي الله عنهما، قال:

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ليس على النّساء الحلق، إنّما على النّساء التّقصير».. بعكس الرّجـال فيحـقّ لهـم الحلـق أو التّقصير، ويُسمّى من يحلقون، المحلّقين.

3. عند المصيبة، تقوم بعض النّساء بحلق شعر رؤوسهنّ وهذا محرّمٌ.. ففي حديث أبي موسى رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بَريء مِنَ الصّالقة والحالقة والشّاقة.

حسبت أنّ الشيخ أنهى.. لكنّه أضاف بأنّ أمراً واحداً قد بقي وأنّ هذا الأمر يتعلّق بشعر البدن بكلّ أماكنه.. قسّمَ الشّعر لمواقع بها أمرٌ بتركها وسكت عن بعضها وأمر بإزالة أخرى.. فقال:

1. ما أمر الشّرع بتركه هو: (اللّحية والحاجبين) وللجنسين.
2. ما أمر الشّرع بإزالته هو: العانة والإبطيْن للجنسيْن، وحَفُّ الشّاربين للرّجال.
3. ما سكَتَ عنه الشّرع ولم يأمر بإزالته أو تركه:

الأنف للرّجال، والصّدر والسّاقين والسّاعدين للنّساء.

عُدْنا إلى الدّيار منهكين ولكنّنا مسرورون كثيراً.. أمّا أنا فقد عُدْتُ وأنا ما زلت أثْقِلُ كاهلي بالسّؤالين المعهودين.. مَنْ يحلق للحلّاق؟ مَنْ يحلق للحلّاق **فلِبْسْ؟**

حلّاقٌ مثقّف

الثقافة لا ترتبط بمهنة أو مستوى علميّ فهي ليست حكراً على أحد مهما ارتفع مستواه التعليميّ كثيراً ما كنت ألتقي بأناس، خاصّة مِنْ كبار السّن الذين تواضع مستواهم التّعليميّ أو لم يتعلّموا.. أقف حائراً والدّهشة تلجم لساني حين أرى أنّ مستواهم الثّقافيّ يسمو على مهاترات بعض المتعلّمين.. منهم أناسٌ سافروا لعدّة دول فاكتسبوا من ثقافاتهم الكثير.. آخرون عركتهم الحياة فكانت تجاربهم الحياتيّة تضيف لهم الكثير من الثقافة واستطاعوا أن يكوّنوا مخزوناً من الحِكمة.

حلاقي الأستاذ محمد، ما كان مدرّساً بقدر ما كان مثقّفاً.. أنتظر بفارغ الصّبر أن يحين موعد حلاقتي لأزوره وأنهل من ثقافاته المتعدّدة.. كلّ زيارة له أكتسب منه الكثير.. أشتري منه ولا أبيعه إلّا القليل ممّا لديّ.. يشاركه بعمله أخوه حسن الذي أعتبره مستودعاً ضخماً للأخبار والأسرار.. لا يترك شاردة ولا واردة إلّا ويضعها بين ضلوعه.. أثق بدّقة معلوماته كثيراً لأنّه يوثّقها ويصوّبها مِنْ أطراف عدّة.. كان يزوّدني أحياناً بمعلومات أو أحداث عن أهلي لأتفاجأ بأنّه لا عِلْم لديّ بما يقول.. أعتقد بأنّهما كانا حلّاقين

متكـاملين.. أحـدهما لديـه العلـم والثّقافـة، والآخـر لديـه الثرثـرة والأخبار.

في يوم عاصفٍ من أيّام كـانون الثاني، ذهبـت للحلاقة بعـد صـلاة العصر.. دخلتُ الصّالون لأجد بـأنّ حرارتـه تجـاوزت حـدّ الـدفء.. طلبت منهما أنْ يواربا الباب قليلاً كيْ تخفّ درجة الحرارة.. رفضا ذلك وقال حسن:

حسن: يا رجل.. صرفنا تنكة كـاز حتّى استطعنا أنْ نرفع درجة الحرارة قليلاً.. سنموت من البَرْد إذا شققنا الباب..

محمد: يا أبا ماهر.. أنت رجلٌ سمينٌ وتحتمل البرْد.. أمّا أخي حسن فلا دهون عليه كما ترى.. جسمه مكوّنٌ من الجلد والعظم..

أنـا: لا تقلقـا.. لـنْ أعـترض.. ولكـن، عليـك الإسـراع يـا محمـد بإنجاز حلاقتي كيْ أخرج وأعود لبيتي.

ضحكا وكأنّهما سجّلا عليّ نصراً مؤزّراً.. طلب منّي محمّد أنْ أجلس على الكرسيّ.. وضع يده على جبهتي وقال:

- ممتاز.. حرارتك عاديّة..
- أراك أصبحت طبيبـًا..
- يا سيّدي نحن نعرف كلّ شيء.. لا تزعل..

- لا لـن أزعـل.. فقـط طلبـت مواربـة البـاب ولـم أطلـب فتحـه بالكامل.. حلٌّ يناسب كافّة الأطراف.. لا تقطعوا شعرة معاوية وخذوا بالحلول الوسطيّة..
- وهل تعرف من أين جاءت هذه العبارة يا صديقي؟
- للأمانة لا أعرف قصّتها، لكنّه مثلٌ يقال للوسطيّة..
- أنا أخبرك بأصل هذه العبارة..
- تقصد أنّها ليست مثلاً؟
- نعم.. هي عبارة لمعاوية بـن أبـي سـفيان، ولكـنّ تِـرْداد النّـاس لها على مدى الأيّام جعل منها مثلاً..
- إذن، أستفيد من علمك..

وضع يده اليسرى على رأسي ودفعه للأمام برفق قائلاً: «دَنّقْ» أيْ طأطئ رأسك.. اعترضت على كلمته وقلت له بأنّني لا أطأطئ رأسي إلّا لله.. أجابني ضاحكـًا بأنّ الجميع يطأطئون رؤوسهم أمام الحلّاق بحبّ واحترام وعـن طيـب خـاطر.. كمـا أنّ بعـض الرّجـال يطـأطئون أيضـًا أمام نسائهم.. عندها ضحكنا جميعـًا كلٌّ منا يقصد من ضـحكه بأنّه لا يطأطئ أمام امرأته..

في هذا الوقت، دخـل علينـا رجلٌ يغطّي رأسـه ببشـكير.. يُمسـك بأطرافه من أمام لحيته.. رحّبا به.. قال له حسن:

- أهلاً بأبي محمد.. ما بك؟ هل أصابك رشح من الجوّ؟
- لا والله..
- إذن، لِمَ تُخفي رأسك بالبشكير؟
- في الحقيقة أنّ خالتك أمّ محمد كانت تحلق لي بماكينة الموزر الكهربائيّة.. قلّعت نصف شعر رأسي كمن تقلع العشب من الأرض.. لم أستطع الاحتمال.. حلفت عليها أن لا تُكمل.. وجئتكم كيْ أتمّ الحلاقة..

ضحكنا جميعاً وطلب منه محمد الجلوس.. أزال البشكير عن رأسه.. نظرت إليه بالمرآة فرأيت أنّ خطّاً صغيراً من وسط رأسه قد حُلِق وأنّ الرّجل أعور العين.. قال له حسن مداعباً:

حسن: والله قليل عليك يا أعور..

محمد: هذه الماكينة إمّا أنّها صدأت أو تثلّمت أو باتت تحتاج لصيانة..

أنا: مش عيب عليك يا حسن تحكي للرّجل يا أعور؟

حسن: أنا معتاد على ممازحته وهو لا يزعل منّي..

أنا: ولا تنابزوا بالألقاب..

محمد: هو لمْ يكن أعور لعشر سنوات مضت..

أنا: ما الذي حصل معه؟

محمد: بينما كان يمرّ بالقرب من هنا، رمى أحد الصّبية عصاً صغيرة على أحدهم.. أخطأت الصبيّ وأصابته في عينه ففقأتها.. الحمد لله أنّها لمْ تقتله.. اتركونا من أبي محمد الآن..

اسمع ما أجمل قول معاوية:

سأل بدويٌّ يوماً معاوية:

كيف حكمت الشّام أربعين سنة رغم القلاقل والأحداث السّياسيّة المضطربة؟

فقال معاوية قولته المشهورة:

«إنّي لا أضع سيفي، حيث يكفيني سوطي.. ولا أضع صوتي حيث يكفيني لساني.. ولو أنّ بيني وبين النّاس شعرة، ما انقطعتْ.. كانوا إذا مدّوها، أرخيتها.. وإذا أرخوها، مَدَدْتُها»..

أنا: جميلٌ ما أفدتني به.. لكن كما يقول المثل حول فتح الباب قليلاً:

«حيّرتينا يا قرعة من وين نبوسك».. فلا حلول وسط لديكم..

محمد: وهذا المثل أيضاً يُقال بطريقة أخرى..

أنا: هههههه.. وما هي يا أستاذ محمد؟

محمد: حيّرتينا يا قرعة من وين نمشطك..

أنا: حتّى المثل جيّرتموه لخدمة الحلاقة؟

ضحكنا جميعـًا.. بعد دقائق قليلة، أنهى حلاقة شعري.. شكا من كثرة الشّعر على أذنيّ وفي أنفي.. وجدتُها فرصة لأقتصّ منه وأردّ عليه، قلت له:

أنا: ليس عيبـًا يا صديقي أنْ يكون شعر جسمي غزيراً، فأنا مُباركٌ كما ترى.. ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول:

«بارك الله بالرّجل الشّعور، وبالمرأة الحلتاء الملتاء».. وأنا رجلٌ شعور.. فما تقول؟

حسن: أعتقد بأنّكما تعادلتما اليوم.. حواراتكما لا تنتهي ولكنّنا نستفيد منك ولو قليلاً.. لقد أسكتماني اليوم وهذه ليست مِنْ شِيَمي أنْ أستمع وأسكت.. سأطرح عليكما سؤالاً مهمـًا..

محمد: تفضل يا أيّها الفطحل..

حسن: مَنْ كان يحلق شعر الفرعون؟

أنا: طبعـًا حلّاق..

حسن: أكيد أنّ من يقوم بقصّ الشّعر هو حلّاق، ولكنّ حلّاق فرعون كان مختلفـًا..

محمد: أنا سأقول لك..

حسن: تفضّل أيّها الأستاذ المربّي..

محمد: كان الفراعنة يعتبرون قصّ شعر رأس الفرعون جزءاً من مراسيم تنصيبه، فيتولى هذه المهمّة كبير الكهنة، فهو الوحيد الذي له الحقّ في لمس شعر الفرعون، لذلك هو يعتبر حلّاق الفرعون.

أمّا الكهنة أنفسهم فقد كانوا يحلقون شعر أجسامهم كاملاً كلّ ثلاثة أيّام.

حسن: أحسنت يا أخي..

أنا: صديقي حلّاق مثقف..

خرجت من باب الصّالون وأنا ألفّ نصف وجهي باللّفحة لتقيني نزلة برد الشّتاء.. وصلت إلى البيت فبدأت بالعُطاس.. اشتدّ عليّ العطاس في ذاك المساء.. بدأت القُحّة تتتابع عليّ في منتصف اللّيل.. أخذني أبنائي للمستشفى بعد أن أصابني ألمٌ شديدٌ بسُرّتي وخرج منها نتوء مؤلم جدّاً.. قال الطّبيب بأنّ هذا فتق بالسُّرّة وأنّه يجب أن تُجرى لي عمليّة جراحيّة لرتق الفتق السُّرّيّ.

تمّ تحديد موعد للعمليّة على أنْ أدخل قسم الجراحة قبل العمليّة بيوم واحد من أجل عمل فحوصات طبيّة وتجهيزي للعمليّة.. كان لا بدّ لي من حلاقة الشّعر لمنطقة تمّ تحديدها لي مِنْ قِبَلِ ممرّض القسم، وقام بإعطائي ورقة محدّد فيها ما هو مطلوبٌ منّي.. لقد طلبوا حلاقة الشّعر كاملاً (على الشّفرة) من أعلى السُّرّة

حتّى أسفل صدري، من تحت سُرّتي حتّى أسفل منتصفي.. أكّد لي الممرّض على عدم إبقاء أيّ شعر ضمن المنطقة المحدّدة.. سألت عن مواد تساعدني على إزالة الشّعر بلا معاناة.. خيّروني بين العقيدة، النّير، اللصقات.. أمّا بالنّسبة لماكنات الحلاقة فعليّ الاختيار بين ماكينة الجيليت جي تو، أو ماكينة الشّفرة القديمة.. اخترت النّير للجزء السُّفليّ والماكينة القديمة للجزء العلويّ حتى أحصل على نظافة ونعومة أكبر.

بعد العمليّة بيوم واحد بدأتُ أحكّ بالجزء العلويّ من مكان العمليّة.. بدأتُ (أهرش) بكلتا يديّ.. بدأت حبوب بالظّهور والاتّساع على بطني.. راودتني نفسي مراراً لنزع اللّصقات عن موضع العمليّة.. أخيراً قرّرت مراجعة الطّبيب لإعطائي ما يخفّف الحكّة.. قال إن هذه الحبوب ستزول تلقائيّاً خلال أيّام وإن الحكّة ستتوقّف بعد استخدام الدّهون.

حلاقة أيّ عضو من الأعضاء التي نهانا الدّين عن أن نزيل شعرها إلّا للضرورة هي مِنْ أسوأ أنواع الحلاقة.. هي الحلاقة التي لا تسُرّ أبداً.. رُغم أنّنا نرى أنّ المصارعين ورياضيين آخرين يقومون بإزالة الشّعر عن مناطق أجسامهم كافة، المباحة وغير المباحة.

كلّما زرتُ حلّاقـًا أو حلقت ذقني في المنزل، أتذكّر **فلِبْس**.. لا بلْ أتذكّر الحلّاقين.. من يحلق للحلّاقين؟ مـن يحلـق للحـلّاق **فلِبْس**؟ أعتقـد بأنّـه آن الأوان للسّـؤال.. مـا عـدتُ صـغيراً.. الأسـتاذ محمـد وأخوه حسن، لا أخجل من سؤالهما.. وهذا ما قرّرته.

هاشم.. و.. أبو هاشم

أصبح الهاتف الخلويّ متاحاً في بلدي.. تطوّر كبير ومتسارع وسباق محموم بين الشّركات العالميّة لصناعة وتطوير تلك الأجهزة.. منافسات شديدة للتّطوير والتّحديث لإضافة تقنيّات جديدة.. منها المفيد، ومنها غير المفيد.. ضيّقوا العالم ووضعوه بين أيدينا بجهاز صغير جميل الشّكل.. صداقات ومعارف من جميع أنحاء العالم.. حرّية في اختيار أو طلب صداقة تظهر لك.

ذات يوم، فتحت جوّالي لأرى طلب صداقة من رجل ما.. تصفّحت حسابه.. اسمه هاشم البيايضة (أبو خالد) من محافظة الكرك ويقطن قرية (مدّين كما يُسمّونها بالكرك) مَدْيَنْ.. رجل عمره قريب من عمري.. منشوراته جميلة ومؤدّبة.. قبلته صديقاً افتراضيّاً لي.

بدأ بيننا حوارٌ تعارفيّ.. قلت له:

- أنت من مدّين.. أليس كذلك؟
- نعم.. هي قرية صغيرة وجميلة من قرى الكرك..
- أعرفها..
- هل زرتها سابقاً؟

- لا.. أنا عملت بها..
- ماذا عملت بها؟ وبم عملت؟
- عملت بها عام 1981م بمشروع كهربة الرّيف الأردني..
- صحيح.. بهذا العام تمّ إيصال التيّار الكهربائي لبلدتي.. هل كنت كهربائيّاً؟
- لا.. كنت مسّاحاً..

طال الحوار حتّى تشكّلت بيننا صداقة.. وعدني بزيارتي في مدينة الرّمثا ودعاني لزيارته في قرية مدّين التي عبّرت له عن اشتياقي لزيارتها واستعادة ذكريات الجميلة في الكرك.

كرّرتُ عليه الدّعوة لزيارتي.. وعدني بالتّلبية بأقرب وقتٍ يمكّنه من ذلك.. وفي أحد الأيام كنت أجلس على مكتبي في بلديّة الرمثا.. دخل أحدهم وقد حسبته أحد المراجعين.. رفعت رأسي ونظرت إليه.. يا إلهي! مَنْ أرى؟ أبو خالد بوجهه الباسم البشوش يقف أمامي.. ينظر إليّ وكأنّه يقول لي: أنا كركيّ لا أكذب.. أصدق الصّديق وألبّي الدّعوة.. تلك هي أخلاقنا.. ما اعتدنا غير ذلك.

أجمل لقاء.. أهنأ لحظات هي التي رأيته فيها وقد انتصب شامخاً أمامي.. أقسمت عليه إلّا أنْ يكون ضيفي وأن يبيت ليلته

عندي.. كان لي ما أردت.. سعادة كبيرة غمرتني بالتّعرف على رجل قلّ أمثاله.

في اليوم التالي قام بتوديعي وهو يؤكّد عليّ لزيارته.. دعوت الله أن يسلّمه وزوجته ليصلوا سالمين لأبنائهم وقريتهم.

انتظرت بشوق أنا ورفيقة دربي حلول الرّبيع لنهنأ بردّ الزّيارة وتذكّر أيام وشهور أمضيناها في بداية زواجنا هناك.. كان لا بدّ لي من حلاقة شعري.. فمن يُقدم على سفر أو فرح أو مناسبة لا بد مِنْ أنْ يقوم بالحلاقة وتزيين نفسه.. موعدي قريب مع الأستاذ محمد أو حسن.. لقد أصبحت أحلق عند أيّ منهما.. لقد أصبحا صديقيَّ.. مهاراتهما تتقارب.

فضولٌ غريب لازمني حول ذاك السّؤال الغريب.. مَنْ يحلق للحلّاق؟ **فلِبْسْ**، هو مَنْ زرع بي تلك الحيْرة.. لست جبانًا ولا خوافًا.. من صفاتي الجرأة في القول والعمل.. لست أدري لم تركت الاجابة عن هذا السؤال خلال السنين الطوال؟ لا يشغل تفكيري أبداً.. ولكنه يراودني بين فينة وأخرى.. أصبحت بعد ما مضى من عمري أخجل أن أسأل هذا السؤال.. هل سيُدفن السؤال معي بلا جواب؟ أم سيأتي اليوم الذي (أفشّ) به الدّمّل وأخرج ما فيه!

للحقيقة أنّني لمست أنّ الكثير من الشّباب يتساءلون عن نفس السؤال.. هم أيضاً لا يسألونه ولا يهتمون بالإجابة.. إلى متى؟ لن أموت وأترك تساؤلاً لي بلا إجابة.. الزّمن يجري وأنا أصبر وأقول لنفسي: قرّي عيناً فلن أخذلك.. سأحصل على إجابةٍ شافيةٍ يوماً ما.

الأمر المحيّر، هو أنّني لمْ أهتمّ لأيّ حلّاق رغم تعدّد الحلّاقين الذين تعاملت معهم.. **فلِبْس**، هو الذي حيّرني وما زال.. علمت أنّ **فلِبْس** توفّاه الله.. لكنّ السّؤال بقي مدفوناً في صدري.. لا بُدَّ وأنْ يخرج يوماً وأعلم الحقيقة.. لكن، مِمّن سأحصل عليها وأريح نفسي؟ من الذي سيخرجني مِنْ حيرتي؟.

حان موعد ردّ زيارتي لأبي خالد.. قبل السّفر بيوم واحد، ذهبت إلى الصّالون قبل الظّهيرة.. لم أجد محمداً.. قام حسن بالحلاقة لي محاولاً إظهار أفضل ما لديه.. تفنّن وأبدع بالحلاقة حتّى ظننتني عريساً..

قرّرت أن نبدأ رحلتنا مُبْكِراً مع إشراقة شمس الصباح.. وصلنا إلى عمان وتناولنا هناك طعام الإفطار.. انطلقنا باتّجاه مادبا وهناك تمتّعنا بمشاهدة وادي الوالة.. لمْ يطُل انتظارنا كيْ نستمتع بوادي الموجب.. هذه الطريق مررنا بها عدّة مرّات في السّابق، لكنّنا وجدناها فرصة سانحة لأن نستعيد ذكرياتنا الجميلة.

وصلنا إلى مثلث الثّنيّة وما زال أمامنا الكثير من الوقت على موعد اللّقاء.. اقترحت رفيقتي أن نزور مؤتة والمزار.. اقترحت عليها أن نزور قلعة الكرك أولاً، ثمّ ننطلق إليهما حتّى لا نعود ثانية إلى الخلف.. استحسنت الاقتراح معلنة رغبتها بقضاء وقت أطول بالمزار بجوار شهداء مؤتة وأداء صلاة الظهر هناك.

أثناء زيارتي لمدّين، فتحت الفيس بوك، لأجد طلب صداقة من الكرك، وتحديداً من الرّبة.. كان صاحب الطّلب سوريّاً يقطن هناك.. لمْ أتردّد في قبوله وإعطائه الموافقة.

بعد حوالي شهرين من تلك الزّيارة، جاءتني دعوة لعمل نشاط ثقافيّ في قلعة الكرك من منتدى الجياد وملتقى الحضارات.. قمت بالتّنسيق مع صديقيّ للقائهما هناك.

مفاجأتي كانت حين علمت بأنّ صديقي السوريّ هو روائيّ يدعى محمد المقداد وأنّ كنيته أبو هاشم.. كان يوماً حافلاً لا يُنسى بالكرك.

دعاني أبو هاشم لزيارته في منزله بالرّبة.. وعدته بأن أقوم بزيارته في الفرصة القادمة.. غادرنا الكرك بعد أن أضفت إلى جعبتي المزيد من جميل الذّكريات والأصدقاء.

مضى ما يقرب من الشهر على عودتي من الكرك.. طال شعر رأسي وذقني.. ذهبت إلى صالون الشباب.. وجدت الأستاذ محمد يحلق لزبون، بينما كان حسن جالساً يدخّن سيجارة خارج الصّالون.. سألني إذا كنت أرغب بأن يقوم هو بالحلاقة لي لانشغال أخيه.. لم أتردّد بالموافقة.. جلست على كرسيّ الحلاقة.. نظرت إلى صديقتي المرآة.. لفت انتباهي جمال حلاقة الأخوين.. بدأت أقلّب نظري بينهما ناظراً إلى شعرهما.. انتبه لي حسن فسألني هامساً:

- ما بك تنظر مرّة لي وأخرى لأخي باستغراب؟
- لا شيء.. أستمتع بجمالكما.. هههههه..
- مشكلتك بأنّني أقرأ أفكارك.. أنت تعرف بأنه يجب أن لا يغيب عنّي أيّ شيء..
- اقترب منّي أكثر.. من يقوم بالحلاقة لكما؟

سألته وأنا أتردّد خوفاً من إحراجي.. حسن لا يفتأ يهزأ من أيّ أمر.. نظر إليّ باندهاش وانفجر ضاحكاً يقهقه وكأنّني ذكرت له نكتة.. غضبت منه.. تماسكت قليلاً كيْلا يهزأ بي.. نظرت إليه نظرة حادّة وجادّة.. هززت رأسي مستفسراً عن سبب ضحكه وهمست له:

- هل سؤالي هذا مضحك لهذه الدرجة؟
- وماذا ترى؟
- باعتقادي أنكما تحلقان لبعضكما بعضاً..
- «أمّال إيه يا بيه»!
- أصدقني القول..
- وهل نذهب لصالون آخر ونحن اثنان واخوان؟

أحسست كم كنت ساذجاً بسؤالي.. حمدت الله بأن مرّ الأمر بهذه الطريقة.. هل كنت سخيفاً حقاً؟ هل سؤالي أوجب أن ينفجر حسن بالضحك هكذا؟ كيف كان سيكون الأمر لو لمْ يكونا صديقيَّ؟ لو كنت قد فكّرت قليلاً، لما سألته مثل هذا السؤال.

بعد شهور قليلة، كان لا بدّ لي من زيارة أخرى لصديقيّ هاشم وأبو هاشم.. تمّ ترتيب موعد لزيارة صديقيّ.. أصرّ أبو هاشم عليّ أن نتناول طعام الغداء عندهم.. أضاف دعوة أخرى أحببتها.. دعاني للحلاقة في صالونه، فهو كما علمت يمتهن مهنة الحلاقة منذ زمن طويل.. لقد عافاني من الحلاقة عند حسن الذي قرّرت أن أبحث عن حلّاق بديل له.. كان لديّ أكثر من سبب لتغييره.. الأستاذ محمد لمْ يعُدْ يعمل بالصّالون.. كما أنّني أصبحت أتثاقل من بُعد المسافة بين

بيتي والصّالون.. ولا أنسى حركته الأخيرة عندما سألته عمّن يحلق له ولأخيه!

اللّقاء الأوّل بيني وبين أبو هاشم كان حارّاً.. رافقني لمنزله لنوصل امرأتي إلى بيته وعدنا للصّالون.. صالونه المتواضع بسعته ومعدّاته كان مفاجأة كبرى لي.. رفوفه تغيب عنه الكريمات المتنوّعة وزجاجات الكولونيا المختلفة ألوانها كما في الصّالونات الأخرى.. صالون متواضع بكلّ ما يحتويه.. كتبٌ هنا وهناك كما لوْ كانت مكتبة مصغّرة.. سألته عن كثرة الكتب التي يضعها عنده فأجاب:

- أنا يا صديقي مجنون قراءة..
- حسناً.. لكنّ أعداد الكتب لديك كثيرة هنا..
- كلّ من يحضر لي كتاباً، أضعه هنا حتّى أقوم بقراءته.. ها أنت اليوم قمت بإحضار مجموعة من الكتب.. ستنضمّ إلى أخواتها حتّى يحين موعد قراءتها ثمّ أحتفظ بها قريبة منّي.. صالوني هو مكتبي ومكتبتي..
- ولم لا ترسلها إلى مكتبتك في البيت؟
- لا مكتبة لديّ في البيت.. مكتبتي هنا.. الصّالون مكان عملي ومكتبتي..
- أرى أنّ عدّة نسخ من مؤلّفاتك هنا أيضاً..

- نعم.. عندما يزورني مَنْ يرغب في القراءة، أهديه نسخة من هذه المؤلّفات ليقرأها.

يقوم بالحلاقة لي.. يحدّثني وأحدّثه وأنا أنظر إلى جمال حلاقته ودقّتها.. راودتني نفسي بسؤاله عمّن يحلق له.. تذكّرت حسن وقهقته.. قلت في نفسي:

«لا يُلدغ المؤمن من جحرٍ واحد مرّتين».. آثرت السّكوت على السّؤال حفظاً لنفسي من الوقوع بإحراج آخر.. لكنّ أبا هاشم أحيا سؤال من يحلق للحلّاق **فلِبْسْ** في نفسي من جديد.. ولكنّ سعادتي بحلاقته كانت كبيرة.. أحسبني عدتُ عريساً كما يقولون.

لقد بات هذا السّؤال يقلقني.. هل هو مهم لدرجة أن لا أنساه؟ لماذا لا أريح نفسي وأسأل حلّاقاً لأنتهي منه؟ حسن أعلمني بأنّ الأخوين يحلقان لبعضهما بعضا.. ليس كلّ صالون به إخوة ليحلق كلّ منهما للآخر.. الحسم بدأ يراودني.. لا تنقصني الشّجاعة، إلّا أنّني لا أسأل.. لماذا؟ لست أدري!

إربـــــد

تتسارع الموضات.. كثُر التشبّه بالمشهورين من الممثلين، المطربين، السياسيّين والرياضيين.. حلاقات ما أنزل الله بها من سلطان.. تكاد تكون كلّها مخالفة لأحكام الشّريعة إلّا قليلاً.. تكاثرت أنواع الكريمات والماكينات.. ديكورات الصّالونات أصبحت مهمّة لأن الصّالون التقليدي بات غير مرغوب فيه..

اختفت (الكراميل) التي كانت تستخدمها النّساء المسنّات.. الباروكة انتشرت وتلوّن شعرها بعدّة ألوان.. رموش صناعيّة وتزيّن خدّاع.. تجارة في بعض البلدان راجت ببيع شعر النّساء الطبيعي.. حلاقة على الشّفرة أصبحنا نراها في الدّول الغربيّة.. يبدو أنّ الأمور باتت تحيّر الحليم.. رفضٌ من الآباء لحلاقة الأبناء، ولكن بلا جدوى.. لست أدري ما الذي يحصل.. رؤوس تشمئز لرؤيتها النّفوس.. تقليد أعمى ينمّ عن جهل وتبعيّة مقلقة.. لهاث وراء الغرب بلا وعي أو إدراك.. ما الذي يجري؟ هل أصبحنا كما قال الرسول عليه الصّلاة والسلام:

«لتتبعنّ سنن من كان قبلكم حذو القذّة بالقذّة، حتّى لو دخلوا جحر ضبّ خربٍ لدخلتموه، شبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراع».

طال شعري كثيراً.. بدأ أبنائي يتساءلون عن سبب عدم حلاقة شعري.. أخبرتهم بأنّني قرّرت تغيير الحلّاق ولا أدري أين سأحلق.. للحلّاق أهميّة كبرى في حياتنا.. وبسبب هذه الأهميّة وتنويهاً لها، ميّز الكاتب العالمي روسيني الحلّاق فيجارو في مسرحيّته «حلّاق إشبيلية)، فجعل منه شخصيّة مميّزة.. نصحني ولداي بحلاقهما.. أبو راشد شابٌ وسيم، بهيّ الطلعة أنيق، يهتمّ بشكله وهندامه كثيراً.. لا يقبل بالحجز على الهاتف إلّا فترات الأعياد فهو يقوم بتحديد ساعة الحضور لكلّ زبون.. راقٍ في أسلوب حديثه وتعامله.. هادئ الطّبع.. لا يختلف عن الباقين بثرثرته، لكنّه يثرثر بطريقة مقبولة.. لا يبحث عن أسرار الناس لكنّه يحدّث كلّ زبون حول مهنته أو دراسته.. تأتيه الأسرار دون أن يطلبها.. هذا ما اعتاده الزّبائن.

الغريب أنّ الموضات تكرّر نفسها كلّ عدّة شهور أو أكثر قليلاً.. حلاقة شعر الرأس على الموسى أصبحت هي الموضة الجديدة للسياسيّين، كبار موظفي ورجالات الدّولة، رجال الأعمال، الأثرياء، وفئات أخرى.. الكلّ يحبّ أن يميّز نفسه.. مثلاً نجد أنّ رجال الأديان السماويّة الثلاثة يميّزون أنفسهم كلٌّ بلباس تُعرف به ديانته.. كما كانت هناك ميزة للمتعلّمين بفلسطين في بدايات القرن التّاسع

عشر.. الطّربوش انتشر هناك وفي عدد من الدُّول العربيّة الأخرى..

من أجمل نوادر الطّربوش بفلسطين ما رواه لي أحدهم، فقال:

كان يمرُّ بأحد الشوارع شخص يركب حماراً ويرتدي طربوشـًا.. التقته امرأة مسنّة.. استوقفته بلهفة وقالت له:

- أرجوك يا أخي أنْ تقف.. أنا بحاجة لمساعدتك..
- على رسلك يا أخيّة.. أطلبي ما تشائين..
- لا أريد منك سوى أنْ تقرأ لي هذه الرّسالة..
- .. ومن أرسلها لك؟
- ولدي ببلاد الاغتراب هو مَنْ أرسلها لي..
- وكيف عرفت بأنّني قارئ؟!
- ألا تلبس طربوشـًا؟
- بلى.. وماذا يعني ذلك؟
- أنت تلبس الطّربوش، إذن فأنت قارئ..

قام بنزع الطّربوش عن رأسه.. وضعه على رأس الحمار وقال: «اقرأه لها أيّها الحمار.. »..

- ما هذا؟
- أنت قلت بأنّ من يلبس الطّربوش، فهو قارئ..
- نعم يا أخي.. هذا ما هو متعارف عليه في بلادنا..

- وأنا ألبست الطّربوش للحمار علّه يقرأ لك الرّسالة!

عالمٌ غريب عجيب.. من الحلاقة على الموسى، إلى قلّة يتنافسون على أطول شعر أو لحية أو شاربين.. إلى فئة تُطيل شعر رأسها وتربطه بالمغّيطة كما النّساء.. هكذا هي الحياة.. عجائب وغرائب!

رحلنا للعيش بإربد.. سرتُ بالشّوارع القريبة من منزلي ألقي النّظر على الحلّاقين القريبين من هناك.. استحسنت أحدهم فقد كان ثلاثينيّاً وقريبا من منزلي.. شابٌ وسيم.. شعره متقن كثيراً.. حلاقته تشبه حلاقتي.. حين تعرّف عليّ بأنّني كاتب بدأ يحاول إظهار ثقافته أمامي.. سألته عن ولدين كانا يحلقان عنده.. قال لي إن أمّهما أعادتهما لتعديل حلاقتهما، فهما لا يريدان الحلاقة التي تشبه حلاقتنا.. قلت له:

- وهل أنت مقتنع بهذه الحلاقة البشعة؟
- لا والله.. لا جمال فيها..
- إذن، لماذا لا ترفضها وتقوم بتزيين الأولاد؟
- في بداية ظهور هذه الموضات، رفضت بعض الحالات..
- وكيف كانت ردّة الفعل؟
- صدّقني، لو بقيت هكذا، لأغلقت صالوني..

- ألهذه الدّرجة؟

- وأكثر.. فأنا أحلق لكلّ شخص بناءً على طلبه وليس للتزيين..

لمْ أحاول سؤاله عمّن يحلق له هو.. بعد عدّة شهور، مررت من أمام أحد الصّالونات القريبة.. رأيت به حلّاقيْن شابّين ورجل خمسينيّ.. سألت أحد جيراني عنه.. أبلغني بأنّه والد الشّباب وهو محترف بالحلاقة كما أنّه مثقّف وقليل الكلام نوعاً ما.

كنت قد مللتُ من كثرة ثرثرة ذاك الحلّاق الشاب.. قرّرت أن أجرّب هذا الخمسيني الذي يدعى أبا عنان.. سُرَّ بقدومي عنده.. رحّب بي وبدأ يتعرّف عليّ وعلى مكان سكناي بعدما قدّم لي نفسه وأولاده.. لمست بأنّه رجل لطيف، هادئ، دائم الابتسام.. سألني:

- كيف تحبّ أنْ تكون حلاقتك؟

- كحلاقتك تماماً..

- واللّحية؟

- لك الخيار.. أريد أن أتزيّن..

- والشّاربان؟

أعادني بذكر الشّاربين لأيّام الصّبا.. استذكرت كلمات تلك الفتاة التي رمتني بكلماتها وانسلّت.. ابتسمت وأنا أتمنى لو أراها لأشكرها وقلت له:

- هذان لا تمسّهما.. فقط قمْ بتقصيرهما حدّ الشفة العليا فقط..
- أتفضل استعمال الخيط أم (الواكس) الشّمع لإزالة الشّعر الزّائد على الوجنتين والأذنين؟
- الخيار لك..
- أشكرك.. لن أقوم بسؤالك مرّة أخرى.. لقد فهمت ذوقك وما تريد.

لمْ يحيّرني أبو عنان.. هو وأولاده مؤكّدٌ أنّهم يحلقون لبعضهم بعضا.. أحببت أنْ ألتزم الصّمت بشأن من يحلق للحلّاق.. لقد تذكّرت حسن وكيف أنّه ربّما استهزأ من سؤالي أو أنّه رأى به سخافة.. لا يُلدغ المؤمن من جحرٍ واحدٍ مرّتين.

عدّة شهور مضت كانت كفيلة بخلق صداقة بيني وبين هذا الحلّاق المحترم.. بسبب قربه من منزلي وحبّي لمجالسته كنت أمرّ في بعض الأحيان لأمضي بعض الوقت معه.. أنظر للصّالون من بعيد.. إذا رأيته يعمل، أستمرّ في طريقي وكأنّني أقصد الحديقة العامّة المجاورة لصالونه، أمّا إنْ رأيته جالسًا بلا عمل فأذهب إليه ونتبادل الأحاديث بمواضيع مختلفة.. هو رجل مثقّفٌ وكان يعمل بمهنة مراقب للأبنية، وهي مهنة تعتبر رديفة لمهنة المسّاح.. كلّ الأحاديث

عن الذّكريات والأيّام الخوالي، لم تعطني الجرأة لسؤاله عمّن يحلق له أو عمّن يحلق للحلّاق.

كنت خلال جلساتنا أستذكرُ **فلِبْسْ** بشكله، بشعره، بثرثرته، بكلّ ما كنت أعرف عنه.. ذات مرّة تساءلت:

هل بموت **فلِبْسْ** يموت الجواب عمّن يحلق له؟ هل بات لزاماً عليّ أنْ أنسى من خلق هذا السؤال بنفسي؟ هل بموته يجب أن تموت ذكراه؟ أسئلة عديدة بدأت تتجدّد في رأسي.. موته لا يُميت ذكراه ولا السؤال.. ذاك السؤال الذي لازمني حتّى بلغت العقد السادس من عمري.. مَنْ التقيته ذات يوم وأخبرني بموته لمْ يحاول أن يتحدّث ولو بشيء قليل عنه.. ذكره لي وكأنّه خبر عابر لا يستحقّ منّا أن نتحدّث عنه ولو قليلاً.. لقد استفزّني خبر موته دون أن أعرف الاجابة عن تساؤلي.. عليّ الآن أن أبحث عن شخص موثوق ليصْدُقني الاجابة وأريح نفسي من عناء التّفكير.

ذات مساء هاتفني أبو هاشم.. أبلغني بعزمه الرّحيل إلى مدينة إربد وترك الرّبة.. سرّني الخبر كثيراً وطلبت منه إبلاغي بيوم قدومه لأكون في استقباله ونبدأ البحث له عن مكان يفتح فيه الصّالون وعن بيت يتناسب مع أسرته ومكان عمله.. أراد بيتاً قريباً لمكان عمله حتّى لا يضطرّ لدفع المزيد من المصاريف.

دعمـًا لأبي هاشم ليبدأ مسيرته الجديدة تركت حلاقي أبو عنان.. لا بدّ أنْ أعينه وبعض الأصدقاء على أن يشقّ طريقه في إربد بنجاح وبددت مصاعب ما استطعنا لذلك سبيلاً.. هذه المرّة لن أعاني في بحثي عن حلّاق.. لقد قمتُ بتجربته ذات يوم حين قمت بزيارتي المنزليّة الأولى له.. في ذاك اليوم طلب منّي الحضور دون حلاقة كيْ يقوم هو بحلاقة شعري لأوّل مرّة.. كانت حلاقة جميلة.. هو حلّاق محترف ذو خبرة طويلة.. له خبرات في عدّة دول عربيّة وهذا يعني بأنّ خبرته متنوّعة ومواكبة لكلّ التطوّرات والموضات.

في زيارتي الأولى لصالون محمد فتحي بإربد، لفت انتباهي أنّ جمال شعره وتسريحته تتشابه بشعر وتسريحة **فلِبْسْ**.. يبدو بأنّ أبا هاشم سيُشعل السّؤال بمن يحلق للحلّاق في رأسي.. ولكنّ السّؤال الأول مات صاحبه وهو بقي حيّـًا لمْ يمتْ.

أذهب لزيارة أبي هاشم.. أجده وقد قصّ شعره حديثـًا.. أنظر إليه ونفسي تراودني بأن أسأله عمّن يحلق له بهذه الدّقة وهذا الجمال.. لاحظت بأنّ حلاقته في الكرك لم تختلف عن حلاقته في إربد.. قلت في نفسي بأنّ متابعته لمن يحلق له وتوجيهه له يجعلانه يحافظ على شكل وموديل ثابت.. ولكن، من هو الحلّاق الذي يحلق له؟ هذا سؤال يتجدّد وحيْرة تشغلني.. أظنّ بأنّني لن أترك هذا

السؤال يبني أطلالاً أخرى في رأسي.. تكفيني أطلال **فلِبْسْ**.. يكفيني التّفكير بأمرٍ لا يستحقّ أن أشغل تفكيري به.

مَنْ لا يَحْلِقْ.. يُقْتَل

كان لا بدّ لي أن أذهب لحلّاقي السابق أبو عنان لأشرح له ما جرى وأنّني يجب أنْ أدعم صديقي القادم إلينا من الكرك.. وجدته يجلس على كرسيّ صغير أمام صالونه يستمتع بالنّسمات الشماليّة العليلة.. ابتسم حين رآني أقبلُ عليه.. أحسست بأنّ ابتسامته تنمّ عن لوم وعتاب.. تجاهلت ابتسامته وكأنّ شيئًا لمْ يكنْ.. سلّمت عليه بحرارة وقبّلته على وجنتيه كما هي عاداتنا بين الأحبّة والأصدقاء.. احتضنني وطبطب على كتفي وكأنّه يخرجني من العتاب واللّوم.. أحضر كرسيًّا صغيراً وطلب منّي الجلوس بجانبه لكنّني استأذنته بالسّلام على ولديه أوّلاً.. جلست وأنا أحدّق في عينيه وكأنّني أعتذر له.. ربّت على ركبتي.. وقال:

- لا عليك يا صديقي.. أرجو أن يكون بغيابك الخير.. أراك اليوم تحظى ب (نيو لوك) ولك بهجة وجلوة..
- في الحقيقة، أنّني جئتك اليوم من أجل هذا ولمْ أحضر للحلاقة..

أجاب (مداعبًا):

- مَنْ لا يحلق عندنا، يُقتل.. هههههه..

- هذه رقبتي والموسى لديك..
- يا رجل سلامتك.. ومن سلّمك منحره فلا تنحره..
- تسلم يا صديقي..

شرحت له ما جرى وأنّ أبا هاشم بحاجة للمؤازرة والدّعم بسبب قدومه من الكرك ولا معارف له في إربد، كما أنّ صالونك يعمل بشكل ممتاز.. تقبّل الأمر بشكل أراحني وطيّب خاطري.. سألني عن سبب عدم تعليقي على كلمته بأنّ من لا يحلق عندهم يُقتل.. قلت له:

- أنت يا صديقي يحقّ لك ما لا يحقّ لغيرك..
- الحقيقة أنّ هذه المقولة لها قصّة مشهورة..
- لم أفهم ماذا تقصد؟
- هناك قصّة قرأتها في قصّة الزّير سالم وهي من غرائب وعجائب العرب..
- إذن.. دعنا نملأ كؤوس وقتنا بعذب شراب قصّتك..
- قرأت في قصّة الزّير سالم أن عنترة بن شدّاد في شبابه التقى بسوق عكاظ برجلٍ سبعينيّ.. سلّم ذاك الرّجل على عنترة بن شدّاد وأطبق بقوّته على يده حتّى سال الدّم من يد عنترة.. رجلٌ اشتهر بأنّه شاعرٌ، شجاعٌ، وحكيمٌ.. صاحب قوّة تفوق

القوّة العاديّة.. قاتل ضدّ جيش أبرهة الحبشيّ فقتل من جنوده مئة وعشرين رجلاً.. سافر مع والده البحّار عدّة مرّات إلى الحبشة.. كما شهد مقتل كُليب بن ربيعة التّغلبيّ على يد جسّاس البكريّ (عمرو بن مرّة البكريّ) حين اندلعت حرب البسوس التي لم يرَ التّاريخ مثلها، سعى لإنهاء تلك الحرب المشؤومة التي دامت لأربعين عاماً بين تغلب وبكر.. أمّا مولد ذاك الأديب الذي شُهدَ له بين العرب، فقد سبق حادثة الفيل بواحد وخمسين سنة، التي وهي الحادثة وقعت بالشعيبة غرب مكّة.. أمّا اسمه فهو الحارث بن عبّاد بن قيس بن ثعلبة البكريّ المولود من أمّ قرشية.

- وما علاقة الحارث بالحلاقة يا أبا عنان؟ وما علاقة سلامه على عنترة بن شدّاد بذلك؟
- على رِسلك يا صديقي.. أحببت أن أضيف بعض المعلومات من أجل التّشويق وقتل وقت الفراغ بسهام الكلمة المشوّقة..
- حسنًا.. أكمل يا أبا عنان.. كلّي آذان صاغية..
- أمّا بالنسبة لعنترة، فبعد أن أسال دم يده قال له قولته المشهورة:

«لو كنتُ سلّمت عليك في شبابي يا عنترة، لأصبح اسمك عنزة بدلاً من عنترة.. ».

- فعلاً كلمات بها بلاغة واعتزاز بالنّفس لا يقولها لعنترة إلّا من كان أكبر منها..
- وله مقولة مشهورة أيضاً بشأن حرب البسوس تقول:

«هذه الحرب لا ناقة لي فيها ولا جمل».. فأصبحت مثلاً يتداوله الناس إلى يومنا هذا.

- نعم صحيح كلّ ما تقوله.. هل لديك المزيد؟
- نعم.. ما أريده سأذكره الآن..
- وأنا خير مصغٍ لك فأنا أحسن الاستماع..
- كان للحارث البكريّ ولدٌ اسمه بجُيْر.. أرسله أبوه مع رجل آخر يحملان رسالة ودعوة لأبي ليلى المهلهِل، وحين قابله أبو ليلى (الزّير سالم).. طلب منه أن ينتسب فانتسب وعرّفهم على نفسه وأنّ أباه قد اعتزل الحرب فهو لا يؤيّد أولئك ولا هؤلاء.. إلّا أنّ الزّير سالم قام بقتله.. فاضطرَّ أبوه لدخول الحرب ضدّ الزّير سالم بع أن ظن خيرا وقال:

«نعم القتيل بجُيرٍ، أصلح بدمه بين ابنيْ وائل.. » يعني بذلك تغلب وربيعة.. إلّا أنّ القوم أعلموه بأنّ قتل ولده كان مقصوداً، فقال

قصيدة غضب وانتقام طويلة لأنّ الزّير سالم اعتبر قتله لبجُيْر فداء لحذاء كُليْب مطلعها:

قرّبا مربط النّعامة منّي ليس قولي يُراد لكن فعالي
قرّبا مربط النّعامة منّي شاب رأسي وأنكرتني الغوالي
قرّبا مربط النّعامة منّي طال ليلي على الليالي الطوال
قرّبا مربط النّعامة منّي كلّما هبّ ريح ذيل الشمال
قرّبا مربط النّعامة منّي لبجيرٍ مفكّك الأغلال
قرّبا مربط النّعامة منّي لا نبيع الرّجال بيع النّعال

وكرّر هذه الكلمات أكثر من خمسين مرّة في قصيدته.. أمّا النّعامة فهي اسم فرسه.. فأحضروها وجهّز ناصيتها وقطع ذنبها، فكان أوّل من قطع ذيل الفرس من العرب.

أمّا المهلهل، فقد أراد مزيداً من القتل فقال:

كلُّ قتيل في كليْبٍ حلالٌ حتّى ينال القتل آل همّام
كلُّ قتيل في كليب غرّة حتّى ينال القتل آل مرّة

اشتعل القتال إلى أن جاء يوم التّحالق.. في ذاك اليوم، طُلب من بكرٍ أن يقوموا بالقتال ليلاً وهذا ما لم تعتده العرب في حروبها.. عندما قالوا له أنّ بصره خفيف لقتال اللّيل، أجاب بأن لا فرق عنده

بين اللّيلِ والنّهار، بل هو يريد أن لا يدع الزّير سالم وقومه يهدؤون بليلٍ أو نهارٍ.. كما طلب منهم أن يُحضروا النّساء معهم للحرب كيْ يقمن بسقي وتضميد الجرحى.. فإذا وجدن جريحًا من قبيلة تغلب، قمن بقتله.. سألوه:

وكيف تعرف النّساء جرحانا من جرحاهم في الظّلام؟ وهل هو من بكرٍ أو من تغلب؟

- سؤال منطقيّ وعلى صاحب الفكرة أن يعطي حلّا مناسبًا..
- أشار عليهم بأن يقوم جميع الرّجال بحلق شعر رؤوسهم.. لتقوم النّساء بتمييزهم من حلاقتهم.. وقد سُمّيَ ذاك اليوم، يوم تحلاق اللّمم..

جاء أحد المقاتلين إلى الحارث واسمه جحدر، وكان قصير القامة، دميم الخلقة.. يُزيّن نفسه بطول شعر رأسه.. خاطب الحارث قائلاً:

- أيّها الحارث.. أنا رجلٌ قصير القامة كثيراً.. دميم الخِلقة.. شعري يعطيني القليل من الجمال.. اسمح لي بأن لا أحلق شعري..
- فأذن له الحارث..

علقت قائلاً هههه.. أظنّ أنّ..

- نعم.. هي كما ظننت.. أصيب ذاك الدّميم جحدر بجرح أثناء القتال.. جاءت النّساء لتُضمّد جراحه.. وجدنه بأنّه ليس حليقًا.. بدأن بضربه وهو يصرخ ويصيح ولا يجد مجيبة حتّى قضى.. كان هذا الدّميم (جحدر) قتيل شعره.
- هو من جلب الموت لنفسه.. لقد غرّد بعيداً عن السّرب..
- نعم صحيح.. لقد انتصر الحارث بتلك الحرب على المهلهِل الذي أخرجه قومه من ديارهم.. طلبوا من الحارث أن يوقف الحرب، فأوقفها.

تلك هي قصّة الحلاقة والقتل يا صديقي.. أمّا أنا فسأحتضنك وأضمّك بين ذراعيّ أخًا وصديقًا وفيًّا.

- لقد ذكّرتني بالإسكندر المقدوني يا صديقي..
- وما هي قصّته يا أبا ماهر؟
- خلال حروب القرن الثالث قبل الميلاد، أمر الإسكندر المقدوني جنوده بحلاقة شعر رؤوسهم ولحاهم كاملة، يهدف من ذلك إلى تجنيب الأسرى من جنوده لِما كان يفعله الفرْس من ربط الأسرى المقدونيين من شعرهم إلى الخيل لسَحْلِهِمْ في الطّرقات..
- أفكارٌ وخططٌ قتاليّة مبتكرة..

- لقد رويت لي عن الذي لمْ يحلق شعر رأسه فقُتِلَ به..
- نعم.. هي قصّة من تاريخ العرب..
- أنا سأروي لك قصّة الرّجل الذي حلقَ شعر رأسه فقُتِلَ به..

أجاب ضاحكًا:

- أمرٌ عجيب.. هاتها!
- هناك مسرحيّة كتبها السوريّ سعدالله ونّوس تتحدّث عن الذي يبيع رأسه مقابل مصلحته، فقد وقع خلافٌ بين الخليفة وكبير وزرائه.. تعمّق الخلاف وكبُر.. أصبح الوزير يفكّر بالاستعانة بملك العجم ليمدّه بجيش خارجيّ يمكّنه من عرش الخليفة.. فقد كلاهما يتجاهل مصالح الشعب مقابل مصلحته الشّخصيّة.. ويردّدان دائمًا مقولة:

«يكفي التّلويح للشّعب بالعصا، لكيْ يرتدع».. وفعلاً استسلم الشّعب واستكان.. وأصبح شعاره:

«اللّي بيوخذ أمّي، فهو عمّي»..

ازداد الخلاف وتفاقم ما بين الخليفة والوزير حتّى بات واضحًا للجميع.. لمْ يجرؤ أحد من الشّعب على الخوض بتفاصيل هذه الخلافات.

علِم الخليفة بأنّ كبير وزرائه يُضمر له أمراً.. أصبح تشديد التّفتيش على الدّاخلين والخارجين لا يستثني أحداً.. فكّر مملوك انتهازيّ منحاز للوزير واسمه جابر بحلٍّ عجيب لمساعدة الوزير.. وقال له:

- أنت تريد أن تطلب مساعدة ملك العجم ليهزم الملك ويسلّمك الحكم.. أليس كذلك؟
- بلى.. لكنّني لن أستطيع تمرير رسالة لملك العجم بسبب شدّة التّفتيش على مخارج المدينة..
- لديّ خطّة مُحْكمة لايصال رسالتك إلى ملك العجم..
- عليّ بها وسأعطيك كلّ ما تطلبه..
- أريد كيساً من الذّهب وأن تكون لي مكانة مرموقة بالدّولة، وأمرٌ آخر بسيط..
- ما هو أيّها المملوك؟
- أن تعتقني والجارية زمرّد وتقوم بتزويجنا..
- لك ذلك.. ما هي خطّتك؟
- تقوم بحلاقة شعري بالموسى.. تكتب على رأسي رسالتك.. وأبقى محجوزاً لديك حتّى ينمو شعري ويطول فأخرج من المدينة وأوصل رسالتك لملك العجم..

أعجب الوزير بخطّته الإبليسيّة المحكمة.. نفّذ الخطّة كما اتّفقا.. وبعدما نما شعر رأسه، أرسله لملك العجم.

علم الوزير بأنّ جابر خبيثٌ، انتهازيّ، متسلّق، ولا أمان له.. كان يضمر له شرّاً.. يؤمن بأنّه كما تدين، تُدان، وأنّ جابر لا بدّ وأن يخونه يومًا ما.

وصل جابر إلى ملك العجم.. أبلغه برسالة الوزير المكتوبة على رأسه.. حلقوا شعر جابر.. قرأ الملك الرّسالة التي كُتبَ بآخرها:

«لكيْ يظلّ الأمر سرّاً بيننا، أرجو أن تقتل حامل هذه الرّسالة»، فقتله.

حلقَ ليحيا ويسعد في حياته.. حلاقته كانت هي سبب مقتله.. جابر، هو مَنْ حلَق فقُتِلَ يا صديقي!

- يبدو أنّ للشّعر أهميّة كبرى في الحروب وبناء الخطط العسكريّة..
- هو كذلك يا صديقي.. والآن، أستأذنك بالمغادرة على أمل اللّقاء قريبًا..

ودّعته على أمل لقاء آخر عندما تسنح فرصة أخرى وأصبحت زبونًا لأبي هاشم.

أبو هاشم حلاق لا يختلف عن غيره من الحلّاقين.. بينهم المثقّف، الثرثار، غير المبالي، المدّعي بأنْ لا أحد يتفوّق عليه بفنّ الحلاقة،.. هو رجل هادئ الطّباع.. كثير الابتسام.. مثقّف وقارئ نهم.. تمتلئ رفوف صالونه بالكتب.. صالونه متواضع ولكنّه مكتمل بأدوات الحلاقة.. لا يهمل الزّبون لكنّه مُقِلٌّ بالكلام.. يضع التّلفاز على أعلى ويسار الزّبون فلا يرى منه شيئًا.. يديم اختلاس النّظرات للتلفاز بين الفينة والأخرى.. يتناول مشطًا من علبة بها الأمشاط منقوعة بمادّة مطهّرة.. يقوم بالنّظر إليه لثانية أو اثنتين ثمّ يعيده لمكانه.. يتوقّف عن العمل للحظات يقوم خلالها بمسح الرّف أو ماكينة.. يعود لتناول السّيشوار فينفث هواءه على الزّبون لينفض ما علق عليه من شعَر.. أكثرها حركات لا أرى لها سببًا أو حاجة.. لست أدري ما هو الرّابط العجيب بين الحلّاقين ومثل هذه الحركات التي لا فائدة منها ولا تعني شيئًا.

أزور أبا هاشم أحيانًا فأجد عنده بعض الأصدقاء من الأدباء.. ينقلب صالون الحلاقة إلى صالون أدبيّ.. نتحدّث بكلّ شيء إلّا الحلاقة.. أمّا أنا فغالبًا ما أحاول المقارنة بينه وبين **فلِبْسْ**.. هما يشتركان ببعض الصّفات.. فهما متشابهان بالشّعر وجماله.. بشرتيهما الحنطيّة.. طولهما وصحّتهما.. قليلا الكلام.. ماهران

بعملهما.. أمّا أبو هاشم، فلا يدندن ولا يغنّي.. وله ميزة عرفتها من أهله.. يقوم بالبيت بتحريك أصابعه الوسطى والسّبابة والإبهام وكأنّه يُمسك مقصّـًا ويعمل به.. وهذا الخبر بلغني لأنّه تربطني به علاقة أسريّة.

احتار دليلي.. سؤال يسكن في صدري أكثر من نصف قرن وإجابته كلمة واحدة أو تزيد قليلاً.. قرّرت أن أسأل هذه المرّة ولن أبالي بالنّتيجة.

الـــرّوايَـــــة

ذات يوم طلبت منّي امرأتي أن تزور صديقتها أمّ هاشم.. كما أنّه حان موعد حلاقتي.. نظرت إليها وعقلي يسرح بعيداً عنها.. ضمرت أمراً ما في نفسي.. وافقتها وذهبنا معًا ثمّ ذهب كلّ منّا إلى وجهته.

عندما وصلت إلى الصّالون، وجدته يحلق لأحدهم.. جلست أنتظر وعيناي تحدّقان بالمرآة.. أظنّني كنت أستمدّ القوّة من صديقتي التي لمْ تخذلني يومًا.. هي من تبعث السّرور في نفسي حين أقف قبالتها.. أرى ما أريد أن يغبطني ويبعث الدفء في روحي.. هي المرآة التي يحبّها جميع الناس.. هي معشوقة المرأة.. صديقة الرّجل.. ملهاة الطّفل.. وهي المحبطة لكلّ المسنين.. تحتدّ نظراتي إليها لكنّها لا تحرّك ساكنًا.. اليوم أدركت أن صديقتي لا تشاركني الإحساس.. ترى ولا تتكلّم.. تكتم الأسرار ولا تُبدي رأيًا.. إذن فهي للصبر عنوان.. وللمحبّ دليل وبرهان.

انتبه لي أبو هاشم.. سألني:

- ما بك يا صديقي؟ هل تعاني من شيء؟
- لا.. لكنّني أفكّر بأمر ما..
- ما هو؟ أم هو سرٌّ لن تبوح به؟

- لا.. أبداً.. أفكّر بشيء طالما تمنّيته..
- وماذا يمنعك عنه؟
- أنت تعرف أنّ الفكرة عند الكاتب تحتاج لحظة لاكتمالها وولادتها..
- نعم.. وما هي فكرتك أيّها القاصّ والروائيّ الجميل؟
- أفكّر بكتابة قصّة قصيرة عن حلّاق.. أيّ حلّاق.. الفكرة تستهويني..
- فكرة جميلة.. متى ستبدأ بها؟
- الآن اختمرت الفكرة في رأسي وسأبدأ فيها اعتباراً من اليوم..
- على بركة الله.. لكن، لا تسلّط سوط قلمك علينا.. هههههههه.. كما تعلم بأنّه من بين الروائيين العرب، عمل الرّوائي السوريّ حنا مينة وأنا بمهنة الحلاقة، فتلطّف بنا..

اخترت **فلِبْسْ** بطلاً لقصّتي كما أنّني اخترت أن يكون هو العنوان لها.. بعد أنْ أنهيت نصفها تقريباً، قمت بنشر فقرة منها لأرى آراء القراء.. علّق أخدهم بتعليق قال فيه بأنّ هذا الرّجل يستحقّ أن تكتب به رواية، فكلّ شباب المخيم لديهم ذكريات معه.

استوقفني تعليقه.. فكّرت مليّاً بكلماته.. قرّرت تحويل القصّة القصيرة لرواية هذه هي سطورها.

هنا، أصبح من الضّرورة أن أسأل عمّن يحلق للحلّاق.. ذهبت لأبي هاشم.. سألته:

- أودّ أن أسألك ولا تخذلني بالجواب..
- تفضل..
- من يحلق لك؟

أجاب (ببرود): لا أحد..

- هل أفهم أنّك لا تحلق وأنّك حليق منذ ولادتك؟
- لا يا صديقي.. أنا أقوم بالحلاقة لنفسي بنفسي!
- وكيف ذلك.. مستحيل أن تحلق لنفسك بنفسك وبهذا الإتقان وهذا الجمال..
- بل هذه هي الحقيقة.. لكنّني أحتاج لمرآتين حتّى أتمكّن من ذلك.. بالنّسبة لي الأمر سهل.. لقد اعتدته.. في البداية كنت أواجه بعض الصّعوبات، أمّا الآن، فحلاقتي لنفسي أسهل عليّ من الحلاقة للزّبون.

أصبح لديّ تأكيدان من حلّاقين مختلفين.. محمد وأخوه حسن يحلقان لبعضهما بعضا.. أبو هاشم يحلق لنفسه بنفسه.. بدأت أتحرّى عن أمر الحلّاق ومن يحلق له.. بعضهم صرّح لي بأنّ زوجته

هي من يحلق له.. بعضهم قال إن أحد أهله يحلق له.. مبدؤهم في الحلاقة لا يعتمد على الأناقة، وإنّما هي مجرد قصّ للشعر وكفى.

وجّهت سؤالاً للعديد من الناس.. من يحلق للحلّاق؟ تفاجأت بأنّ الغالبية العظمى ممّن سألتهم يقولون والمفاجأة ترتسم على وجوههم:

«نعم.. من يحلق للحلّاق؟».. سؤال يتبادر لذهن الغالبيّة العظمى.. لكنّهم هم أيضاً لا يسألون.. عندما سألتهم وجدتهم يبحثون عن إجابة.. بعضهم أعلن عدم اكتراثه لمثل هذا السّؤال.. وجدت أيضاً أنّ أكثرهم يتحرّجون من طرح مثل هذا السؤال.. لا بدّ من إنهاء هذه التّساؤلات.. ما يهمّني منها هو أمر **فلِبْس** فقط.. ربّما لأنّه هو مَنْ فجّر تلك التّساؤلات.

شجاعتي وجرأتي للاستفسار من أبي هاشم، قادتني إلى التّوسّع بالبحث وسؤال أقربائي في فلسطين عن حقيقة وصدق الإجابات التي أحتاجها.. تواصلت مع نسيبي مؤيّد بلالطة وطلبت منه أن يقوم بسؤال أبناء **فلِبْس** عن حقيقة هذه الإجابات.. انتظرتُ طويلاً ولمّا يأتيني الرّد.

أعلم بأنّ الحلّاق الثاني في المخيّم (أبو العبد)، كان مديراً لمطعم وكالة الغوث لتشغيل اللاجئين الفلسطينيين.. أمّا ما لم أكن أعرفه

فهو أنه كان مناضلاً ومجاهداً ضدّ اليهود الذين اغتصبوا أرض فلسطين منذ العام 1948م.. كان رئيسًا لجبهة تحرير فلسطين (ج. ت. ف.).. رجلاً مخلصًا لوطنه.. عصاميّ ومن الرّجال الشرفاء.. أمّا **فلِبْسْ** فقد كان عضواً في تلك المنظمة.

مفاجأة تلو الأخرى بدأت تتكشّف لي عن حقيقة الحلّاقين وعن أسرارهم.. كيف لا وهم مخازن الأسرار؟ كلّ مهنة أو عمل يخبّئ الكثير من الأسرار.. ميزة الحلاقة بالمحافظة على هذه الأسرار.. فضح أيّ من هذه الأسرار قد يُفقد الحلّاق عمله.. عندما واجهت محمد فتحي بهذه الحقيقة، ابتسم وقال لي بأنّ الحلّاق يجب أن يضع قفلاً محكمًا على صندوقه ويُلقي بمفتاحه في ظلمات البحر.. هذه الأسرار ليست بمستوى الأسرار العسكريّة، ولكنّها تحتاج لكتمان أكبر وأشدّ.

صحوت من نومي ذات يوم بعد القيلولة.. أحسست بأنّ الشياطين تلعب على رأسي.. لا أطيق شعر رأسي ولا شعر لحيتي.. أسرعت إلى ولدي طالبًا منه أن يقوم بحلاقة شعري فوراً.. لست أدري ما أصابني، لكنّني لا أطيق الشَّعر.. كانت حلاقة إزالة شعر لا أكثر.. لا فنيّات ولا مهارات فيها.. المهم أنّ نفسي هدأت وسكنت.. لا نستغني عن وجود الماكينة في البيت.. أحيانًا نحتاجها بوقت لا

تجد فيه الحلّاق حاضراً.. من هو بمثل عمري، لا يهمّه أن يكون وسيماً بقدر ما يهمّه أن يتخلّص من شعره.. كبار السّن ينمو الشّعر على آذانهم ورقابهم وداخل أنوفهم بتسارع كبير.. يملّون من الشّعر الذي طالما اعتزّوا وتباهوا به.

العقد السّادس من العمر يقلّل من الاهتمام بالحلاقة والشّعر.. يميل أغلب الرّجال إلى تقصير شعرهم فنرى أنّ غالبيّتهم يحلقون على الماكينة في بيوتهم.. لا يُطيقون الانتظار في الصّالون فيتجنّبون أيّ إحراج مع الحلّاقين والزّبائن.

فاجأنا وباء الكورونا اللّعين.. ظهر في الصّين.. انتشر في الدّول كما النّار في الهشيم.. بدأت الدّول بإغلاقات لحدودها مع الدّول الأخرى.. إغلاقات لأماكن ومصالح يتمّ بينها التّعامل مع النّاس منعاً للإختلاط والتّقارب للحدّ من انتشار الوباء.. أوقفت الأردن كباقي الدّول العمل بالكثير من المصالح ومنها صالونات الحلاقة بسبب التّقارب الذي يكون بين الزّبون والحلّاق.. طال الإغلاق وطال معه الشّعر.. منعت الحكومة بأوامر صارمة عمل الحلّاقين حتّى في البيوت.. بدأ البعض بمحاولات العمل عبر الهاتف والوصول إلى بيوت الزّبائن خفية وبعيداً عن عيون رجال الأمن.. تمّ كشف البعض منهم فقدّمتهم الحكومة لمحاكمات وفرضت عليهم

غرامات لأنّ البعض منهم نقل العدوى للآخرين.. قاموا بالتّشديد أكثر وأكثر.

كلّ من لديه ماكينة أصبح يحلق بالبيت بطريقة إزالة الشّعر بلا أناقة ولا فنّ.. من لم يكن لديه ماكينة، قام بشراء واحدة ليستخدمها هو وأبناؤه.

أصبحت أهتمّ أكثر بموضوع الحلّاق والحلاقة.. بحثت عن بعض مَنْ كتبوا بالحلّاق والحلاقة.. كتب الرّوائي المغربي يوسف فاضل رواية تحمل اسم «حلّاق درب الفقراء».. أمّا الرّوائي السوري علي أحمد العبدالله فقد كتب رواية (عند حلّاق حيّ الكبّاس).. أمّا أنا فقد بدأت بجمع المعلومات بشكل موسّع لإكمال روايتي عن الحلّاق **فلِبْسْ** والعودة للحصول على سؤالي عمّن كان يحلق له.

لنْ تكتمل روايتي إلا بالحصول على إجابات لأسئلتي.. بعد العقد السّادس من عمري وجائحة الكورونا سيأتي الرّد.. سأفجّر ما احتقن بين ضلوعي رغم أنّه لا يستحق هذا التّكتّم والصّمت.

لقد أصبح لديّ قناعات مؤكّدة حول طرق حلاقة الحلّاقين ومن يحلق لهم.. اختلفت الطّرق كما اختلف الشّخوص.. ما يهمّني الآن، فقط هو:

«من يحلق للحلّاق **فلِبْسْ**».. لقد استبعدت من احتمالاتي أنّه كان يحلق عند أبي العبد لسبب بسيط، وهو أنّه المنافس الوحيد له في المخيّم.. باقي الاحتمالات كلّها مطروحة بقوة.. أرجّح بأنّه كان يذهب إلى طولكرم للحلاقة عند حلّاق غريب.. ولكن، ألم يكن بحسبانه بأنْ يراه أهالي المخيّم؟ سيفقد الكثير من زبائنه لأنّهم ببساطة سيقولون له بأنّنا نودّ الحلاقة بالمدينة كأنت.

الــدّهشة

أبـو العبـد (حـلّاق المسـنّين).. صـالونه الـذي يجـاور ويلاصـق ملحمة والدي، يقع على ضفاف الوادي العابر للمخيّم.. ذات يوم ذهبت عند والدي.. أجلسني بالملحمة وذهب عند جاره لحلاقة شعره.. حضر أحد الزّبائن يريد شراء اللّحم.. وقفت بباب الملحمة المجاور للصّالون.. بينما كنت أنادي على أبي، مرّ **فِلِبْسْ** يحمل حقيبته التي يأخذها حين يقوم بالحلاقة لشخص خارج الصّالون، كالحلاقة لعريس مثلاً.. وقف بباب الصّالون.. سلّم على مَنْ كانوا في الدّاخل.. انطلق يطوي طريقه بخطوات متقاربة وعلى مهل.. وقفت أنظر إليه مستغربًا تسليمه على أبي العبد.. وقفت أراقبه والدّهشة تلجم لساني عنْ أيّ كلام.. يمشي خطوات.. يقف للحظات.. ينظر إلى الخلف.. يعود للمشي ببطء شديد.. الطّريق التي يسلكها تتجه باتّجاه معاكس لطريق بيته.. حاولت أن أستذكر إن كان هناك عريس في مخيّمنا الصّغير الذي أعرف جميع سكّانه.. إعتقدت بأنّ هناك عريسًا لا أعلم به.. قلت في نفسي:

«لا بدّ وأن أعرف من هو العريس.. لكن كما يقولون: يا خبر بمصاري، بكرة بصير ببلاش..».

دقائق قليلة مرّت، وإذا بوالدي يعود إلى الملحمة.. بقيت أقف بباب الملحمة.. التفتّ لأرى **فلِبْسْ**.. اختفى عن ناظري.. لم أعرف أين اتّجه.. ما حصل أنّ أبا العبد أغلق صالونه وغادره بيدين فارغتين.. سار بالطّريق الوحيد الذي مرّ به **فلِبْسْ**.. نزوله بالطّريق كان سريعاً وبخطوات متباعدة.. هل توافَق الحلّاقان بالطّريق؟ هل تنافسهما يوجب عليهما أن يتباعدا في كلّ شيء؟ الطّريق حقٌّ للجميع.. ويبقى الجميع أهلاً وأصدقاء.. الميزة التي يمتاز بها مخيّم نورشمس أن جميع قاطنيه هم من منطقة حيفا المتجاورة والمتقاربة قراها.

مساء أحد الأيام، كنت أجلس مع أسرتي والسعادة تملأ قلبي.. أخبرتهم بأنّ هذا اليوم أحسبه من أيّامي السّعيدة.. إتّصل بي نسيبي مؤيّد.. أخبرني بأنّه تواصل مع أحد أبناء الحلّاق **فلِبْسْ**.. أخبره بأنّه مداوم مع الشّرطة وأنّه سيتواصل معه باليوم التالي ويجيبه عمّا يريد.

في اليوم التالي، كان عليّ القيام بزيارة لأحد الأصدقاء.. سرت في شارع جانبيّ.. استوقفني أحد صالونات الحلاقة.. كان اسم الصّالون (نعيماً).. كلمة يقولها الجميع لمن يقوم بالحلاقة.. الحلاقة فرحة وسعادة للحالق.. جمالٌ وبهجة وإشراق.. تقصير الشّعر يعطي الحالق رونقاً خاصّاً.. أمّا ما يحصل من حلاقات

للذّكور والإناث، فأكثرها تشمئزّ لها النّفوس.. تقليد شبابنا للغرب بات مقرفـًا.. لماذا نقلّد؟ لماذا لا تكون لنا شخصيّتنا المستقلّة؟ لماذا لا نعتزّ بأنفسنا؟ هل الحلاقة تجميل، أم تبشيع؟ لقد أصبح الحليم حيرانـًا ممّا نرى!

بعد صلاة العشاء في هذا اليوم، جلست أحتسي القهوة بصحبة عائلتي.. رنّ هاتفي.. نظرت إليه.. كان المتّصل هو نسيبي مؤيّد.. ابتسمت فرَحـًا.. أيقنت بأنّ ساعة الصّفر قد حانت.. نعم، أنا لـمْ أقـمْ بسؤال أحد.. كلّفت نسيبي بهذه المهمّة لينوب عنّي بالسّؤال.. ما أتعسني! هل يحتاج سؤال كهذا لكلّ هذا الصّبر والصّمت؟ هل بات سؤال كهذا يؤذيني لأصبر على إجابته منذ طفولتي وشبابي حتّى مشيبي؟ يا حسرتي على حالي! يا أسفي على نفسي؟ كيف صبرت كلّ هذه السّنين؟ هي إرادة الله سبحانه وتعالى لأخط هذه الرواية.. فتحت الخط وقلت:

- مرحبـًا يا أبا أدهم..
- مرحبـًا بك..
- قمحة ولّا شعيرة؟
- قمحة طبعـًا.. وهل تشكّ في ذلك؟

- أنا أعرف مَنْ كلّفت.. أمّا الآن فأنا على أحرّ من الجمر لسماع إجاباتك..
- بالنّسبة لعلاقته بأبي العبد، أودّ أنْ أعلمك بأنّه كان مِنْ أقرب الأصدقاء له، وأنّهما كانا رفقاء سلاح في المقاومة ضدّ اليهود..
- هذه عرفتها.. أريد من كان يحلق له..
- على رِسلك.. حقيبته ومعدّاته التي كان يستعملها قديماً ما زالت موجودة، وسأقوم بإرسال صورتها لك..
- يا رجل.. هذه الأمور لا تهمّني.. أعلمني بمن كان يحلق له.. هل كان أحد أفراد عائلته؟ هل كان يحلق لنفسه بنفسه؟ هل كان يحلق في طولكرم؟ بالنّسبة لأبي العبد فأنا أستبعد كلّيّاً أن يكون هو حلّاقه.. صبرت خمساً وخمسين سنة أنتظر إجابة هذا السّؤال.. لا تسمّ بدني وأرحني.. يجب أن أكمل روايتي قريباً.. لقد مللت الانتظار..
- صبرتَ كلّ هذه السنوات وأنت تكتم السّؤال في صدرك، وتأتي اليوم ولا تصبر ثوانيَ قليلة؟ يا الله ما (أجقمك)!
- يا رجل أنا أبحث عن كلمة واحدة.. أريد اسم حلّاقه فقط..
- تريد كلمة واحدة؟

- نعم.. اسم واحد يكفيني..
- كان حلّاقه هو المقصّ! هههههههه.
- أنت تهوى استفزازي.. اتّق الله يا رجل..
- أكبر مفاجأة ستتلقاها الآن..
- وما هي يا أبا أدهم؟
- حلّاقه الذي لـمْ أتوقّعه أنا ولـمْ تتوقّعه أنت هو أبو العبد يا سيّدي!
- مستحيل.. مِنْ أين لك هذه المعلومة؟ ما مدى دقّتها؟
- المعلومة من ولده الكبير نبيل.. لقد أكّد لي ذلك وأخبرني بأنّه كان يرافقه أحيانـًا لبيت أبي العبد فيقوم هذا بالحلاقة له..

استمرّ مؤيّد بالكلام، أمّا أنا، فقد سرحت بعيداً وعدتُ لأيّام طفولتي.. استذكرت يوم مرّ **فلِبْسْ** على أبي العبد.. ألقى عليه السّلام وغادر.. لقد كان سلامه هو إخبار بأنّه يسبقه كيْ يحلق له.. عندما أغلق أبو العبد صالونه غادر لمنزله لاحقـًا بصديقه، واللّقاء سيكون ببيت الأخير لأنّهما اتّجها باتّجاه منزله.. استعادني مؤيد بقوله:

- ألو.. ألو.. أين أنت؟ أأحدّثك أم أنّني أحدّث نفسي؟
- أعتذر منك.. المفاجأة صعقتني..
- ولماذا صعقتك؟

- آخر ما كنت أتوقّعه هو أنْ يكون هذا هو حلّاقه.. تكتّم رهيب على هذا الأمر..
- وللعلم فقط.. كان هو من يحلق لأبي العبد..
- بلا شك أنّ عملهما سيكون متبادلاً..
- لكنّ السؤال المهم هو، لماذا كانا يخفيان هذه المعلومة عن الناس؟
- إنّها المنافسة أيّها الحبيب.. ولكنّها كانت منافسة شريفة.

أنهيت مكالمتي مع مؤيّد وأنا مندهش دهشة لم أكنْ أتوقّعها.. أذهلني الجواب.. كنت أبحث عن الجواب بعيداً.. الحقيقة أنّ الجواب كان بين يديّ.. كما يقول المثل الشّعبي:

«مثل الّلي بدوّر عالنّير، والنّير معلّق برقبته»..

كتبت هذه الرّواية احتراماً لذكرى حلّاق أسعد الآلاف من بلدي.. رسم البسمة على وجوههم.. زيّن وجمّل كلّ من تزوّجوا بزمنه.. ترك ذكريات لكلّ أهالي المخيّم ليتحدّثوا بها ويحدثوا أبناءهم وأحفادهم.. ذكراه وذكرى من كان مثله لا تموت.. أبي- رحمه الله- كان جزّاراً، فكيف سننساه؟ أحمد العمّوري (الجِكرِزْ)، الرّجل المعاق عن الحركة برجليه كان يفتح مقهى.. مسعد المختار وصاحب بقالة.. أبو العطا بدكانه المجاورة للبركة.. مخفر المخيّم..

أبـو مصـطفى الشّـهاب طبّـاخ المخـيّم بمطعـم الوكالـة.. وغيـرهم الكثيـر.. قضـوا نحبهم.. نـترحّم عليهم.. ومـا زلنـا نـذكرهم بـالخير ونستذكر زمنهم الجميل.. عندما كان الحبّ بين الناس.. عنـدما كـان الصّدق وكلّ الصّفات الجميلة هي سمة الأكثريّة.. رحمـك الله يـا أبـا العبـد.. رحمـك الله يـا أبـا نبيـل.. وسـتبقى يـا **فلِـبْسْ** اسـمًا وذكـرى خالدة.

تمّت بتوفيق من الله

توفيق جاد

- من مواليد مخيم نورشمس/ طولكرم بتاريخ 11/ 1/ 1959.
- أنهى المرحلة الإعدادية من مدارس وكالة الغوث في نورشمس عام 1974. ودرس الأول الثانوي في مدرسة طولكرم الثانوية ثم أنهى الثانوية العامة من المدرسة الفاضلية بطولكرم عام 1977، ثم درس المساحة المستوية بدبلوما في عمّان.
- عمل مسّاحًا في شركة كهرباء محافظة إربد عام 1977، ثم انتقل للعمل مع شركة (جي إي آي) الألمانية. بعدها التحق بالقوات المسلحة نائب مساحة مدفعية من عام 1983 حتى عام 1987، ثم عمل مع شركة سوليكو اللبنانية في جامعة العلوم والتكنولوجيا وشركات محلية أخرى. وفي عام 2008م التحق للعمل ببلدية الرمثا مسّاحًا وعُيّن رئيسًا لقسم المساحة حتى نهاية عام 2018.
- عضو اتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين منذ عام 2017 حتى نهاية عام 2019.
- عضو وأمين سر الجمعية العربية للفكر والثقافة منذ عام 2015.
- عضو ورئيس لجنة الشباب بمنتدى الجياد للثقافة والتنمية منذ عام 2016.

- عضو في منتديات ثقافية في الأردن وخارجه.
- شارك في تنظيم مسابقتين شعريتين في الأردن.
- نظم نشاطات شبابية ولقاءات إذاعية وتلفزيونية من خلال إذاعة إربد الكبرى وتلفزيون سفن ستارز.
- كتبت عن سيرته الذاتية ومسيرته الأدبية، طالبات في الجامعة العربية الإسلامية، وجامعة جرش الأهلية، وجامعة مؤتة.

- **المؤلفات:**

1. «الصرير»، مجموعة قصصية، مكتبة الطلبة الجامعية/ إربد، 2016.
2. «الغداء الأخير»، رواية، مكتبة الطلبة الجامعية/ إربد، 2017.
3. «خربشات أدبية»، كتاب أدبي، 2018.
4. «عتبات صغيرة»، كتاب أدبي لمجموعة من المبدعات والمبدعين الشباب (إعداد وتحرير)، 2018.
5. «بنش مارك»، رواية، 2019.
6. «على خطى الشيطان»، مجموعة قصصية، 2020.

- *للتواصل مع الكاتب:*

البريد الإلكتروني: tawfiqjad59@gmail.com

واتس آب: 0798487279

فيس بوك: توفيق جاد